نوابغ الفكر العربي

٢٤

رفاعة رافع الطهطاوي

١٨٠١ – ١٨٧٣

بقلم الدكتور جمال الدين الشيال

«كان رفاعة فيه زيادة كرم وسماحة ، وفريد بلاغة وفصاحة ، كثير التواضع ، جم الأدب ، محباً للخير . . . ، وكان قليل النوم ، كثير الانهماك فى التأليف والتراجم ، حتى إنه ما كان يعتنى بملابسه . »

صالح مجدى

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

الفصل الأول

عصر رفاعة الطهطاوى

١ ـ الحركة السياسية

ا ـ مصر والشرق الأدنى فى أواخر العصر المملوكى :

انقلب الأوربيون إلى ديارهم بعد أن منوا بالهزيمة فى الحروب الصليبية وقد بهرتهم أنوار الحضارة الإسلامية ، وأخذوا معهم مفاتيح تلك الحضارة ، فتفرغوا لها يقتبسون من لألائها ، وينقلون آثارها ، ويدرسون تواليفها ؛ ولقد ساعدتهم عوامل جغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية أخرى على أن يسيروا بالحضارة فى طورها الجديد على طريقة جديدة تعتمد أكثر ما تعتمد على التفكير الحر أولاً . وعلى الملاحظة والتجربة والاستقراء ثانياً ، فهد هذا كله لهم السبيل إلى كشوف علمية جديدة كانت هى الطلائع لحضارة القرنين التاسع عشر والعشرين .

كان الأوربيون يفعلون هذا كله فى حين كان الشرق قد اتخذ لنفسه ، أو اتخذ له القدر أسلوباً آخر من الحياة يختلف كل الاختلاف عن هذا الأسلوب الذى اصطنعته أوربا لنفسها أو اصطنعه القدر لها .

بذل الشرق الأوسط ـ وكانت مصر حينذاك مركزه وضيعته الغنية وحصنه القوى ـ جهوداً عنيفة لردّ الصليبيين عن مصر والشام ، ولم يكد ينجح فى مهمته حتى فاجأته غارات أشد قوة وتدميراً ، هى قوة التتار ، يغيرون عليه فى موجات متلاحقة متدافعة ، فصمد لها ، ودافعها حتى دفعها ودفع شرها ؛ وكان لمصر وحكامها من سلاطين المماليك كذلك الفضل كل الفضل فى تدويخ هذه الجموع الهمجية حتى أحست بالدوار ، فولت وجهها وجهه أخرى ترضاها ،

بعد أن قبست قبساً جديداً من نور الإسلام هذبها وشذب من وحشيتها .

تلاشت هذه الموجات الصليبية الأوربية والتترية بعد أن بذلت مصر وبذل سلاطينها الجهد كل الجهد ، والمال كل المال ، فى القضاء على هذين الخطرين، لهذا لا نعجب إذا لاحظنا — بالمقارنة — أن عصر المماليك الثانى — وخاصة فى أواخره — يقل قوة وجاهاً عن عصر المماليك الأول .

ولا عجب أيضاً أن نجد الحركة العلمية فى مصر تخمد وتضعف فى هذه القرون ، فلم يظهر فيها مفكرون جدد ، ولا مدارس تفكيرية جديدة ، وانتهت العناية بالعلوم فى الأزهر والمساجد والمدارس التى كان ينشئها سلاطين المماليك إلى دراسات دينية أو لغوية أو تاريخية ، وانتهى جهد العلماء فى مصر إلى نظم قصيدة لمدح سلطان إذا انتصر ، أو تأريخ حياته إذا مات ، أو شرح ، أو تفسير ، أو تهميش ، أو تعليق ، أو اختصار لأمهات الكتب القديمة فى الفقه والتفسير والحديث وغيرها من العلوم الدينية واللغوية .

غير أن هناك شيئاً واحداً لم ينسه المصريون فى عصر من العصور ، ذلك هو شعورهم بأنفسهم ، وببلادهم مصر ، وبأمجادهم الحضارية خلال العصور ، ذلك الشعور كان له أثره الخطير فى تاريخ مصر العلمى ، فقد دفع المصريين دائماً إلى تأريخ أنفسهم وملوكهم وقضاتهم وعلمائهم ومدنهم ومعابدهم ونيلهم وأعيادهم . . . إلخ .

وكانت لنا من هذا الجهد المتصل سلسلة كتب الخطط وما يكملها من كتب التاريخ والتراجم ، تبدأ بكتاب « فتوح مصر » لابن عبد الحكم ، وتنتهى « بالخطط التوفيقية » لعلى مبارك ، و « تقويم النيل » لأمين سامى ، و « تاريخ الحركة القومية » لعبد الرحمن الرافعى .

ولم يكد القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) يوشك أن ينتهى حتى كان الإعياء قد أخذ من مصر كل مأخذ ، ولهذا نراها لا تستطيع أن تقف

طويلا أمام قوى العثمانيين المتفوقة ، وينتهى بها الأمر إلى الخضوع والاستقرار بعض الحين .

وكأننا بالمصريين وقد أحسوا الخطر الداهم فى ذلك الوقت ، فتدافعوا فى منافسة عجيبة — طوال القرن التاسع الهجرى — يسعون لجمع ما وصل إليهم من علم ، وما كان بين أيديهم من كتب ، فى موسوعات كبيرة ، فتظهر فى هذا القرن أسماء لامعة ، ونرى المقريزى يكتب « الخطط » و « اتعاظ الحنفا » و « السلوك » وعشرات غيرها من الكتب ؛ والقلقشندى يكتب « صبح الأعشى » وابن خلدون يضع تاريخه فى مصر ؛ والسيوطى يجمع مئات الكتب ؛ ثم نجد السخاوى أخيراً يؤرخ لهؤلاء جميعاً — ولغيرهم ممن عاشوا فى هذا القرن — فى كتابه « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » مترسماً خطى أستاذه ابن حجر فى كتابه « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » .

ب — الضعف الشامل فى العصر العثمانى وأسبابه :

فقدت مصر استقلالها بعد الفتح العثمانى ،وظلت القوى الثلاث الحاكمة (الباشا والديوان والمماليك) ، وهى قوام النظام الذى وضعه سليم الأول لحكم مصر ، وللاحتفاظ بها ولاية عثمانية أطول مدة ممكنة . ظلت هذه القوى تتناحر وتتنازع ، وكل واحدة منها تبذل جهدها لتحقيق غرضين اثنين :

— أن تقوى هى ، وأن تضعف القوتين الأخريين .

— أن تبتز من الشعب ما تستطيع ابتزازه من مال لتغنى .

وأما الشعب ، وأما البلد ، وأما نواحى الإصلاح للرقى بالشعب وبالبلد ، فقد أهملت جميعاً ، حتى سطر التاريخ لهذا العهد صفحة سوداء ، وغدت مصر توصف — فى هذا العهد العثمانى — بالضعف فى كل شىء : بالضعف فى النواحى الحربية والاقتصادية ، وبالضعف فى النواحى الصحية والعلمية ؛ وخيم على البلاد نوع من الجمود والركود ظل ثلاثة قرون طويلة .

بحث الأستاذ محمد شفيق غربال أسباب هذا الركود بحثاً موفقاً فى المقدمة التى قدّم بها كتاب « الشرق الإسلامى فى العصر الحديث » للدكتور حسين مؤنس ، فنفى قول القائلين بأن هذا الركود يرجع إلى كون « الحكام العثمانيين من شعب يميل إلى المحافظة بسليقته ، فالعثمانيون لم يكونوا من شعب واحد ، ولم تكن العثمانية إلا دلالة على الانتماء لطائفة الحاكمين ، هذا إلى أن نظم العثمانيين الأولى ، وما اختطه سلاطينهم الأول لشؤون الحرب والسياسة كان على جانب عظيم من المرونة والمقدرة »[1].

ثم وضع الأستاذ — بعد ذلك — أصبعه على موطن الداء ، وسبب ذلك الركود ، فقال :

« قد يرجع الركود إلى أن القوة العثمانية حالت بلا شك دون اتصال أمم الدولة بالحضارات الأجنبية عموماً ، وبالحضارة الأوربية خصوصاً » .

٢ — الحركة العلمية

١ — الحالة العلمية بمصر فى أواخر القرن الثامن عشر :

ومهما تكن الأسباب فإنا لا نستطيع أن ننسى أن هذا الركود الطويل دفع مصر وسكانها إلى الانكماش داخل بلادهم كما تنكمش القوقعة داخل صدفتها ، وطال انكماش مصر وسكانها فأصيبت وأصيبوا بالضعف ، شأن المريض يطول به الرقاد وتطول به الوحدة ، لهذا لا نعجب إذا قرأنا وصف الرحالة الأوربيين الذين وفدوا على مصر والشام وسائر بلدان الدولة العثمانية فى أواخر القرن الثامن عشر ، أمثال « ساڤارى Savary » و « ڤولنى Volney » وغيرهما .

(١) حسين مؤنس : « الشرق الإسلامى فى العصر الحديث » الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص « و » من المقدمة .

قال « ڤولنى » يصف الحالة الصناعية والعلمية فى مصر وقتذاك :

« الجهل عام فى هذه البلاد مثل سائر تركيا ، وهو يشمل كل الطبقات ، ويتجلى فى كل العوامل الأدبية والطبيعية ، وفى الفنون الجميلة ؛ حتى الصناعات اليدوية ، فإنها فى أبسط أحوالها ، ويندر أن تجد فى القاهرة من يصلح الساعة ، وإذا وجد فهو إفرنجى ؛ أما الصياغة فأصحابها فيها أكثر مما فى أزمير وحلب ، لكنهم جهلاء ، وهم إنما يتقنون المنسوجات الحريرية ، وإن كانت أقل إتقاناً وأغلى ثمناً من تلك التى تصنع فى أوربا ؛ أما العلم فوجود الأزهر فيها جعلها مقصد الطلاب من الشرق الإسلامى » .

وحتى هذا العلم ، وحتى هذا الأزهر لم يكونا فى القرن الثانى عشر (الثامن عشر الميلادى) فى حالة طيبة مبشرة ، بل شملتهما موجة من الركود والجمود ، وقد وصف مؤرخ مصرى — هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتى — مدى ما وصلت إليه الحالة العلمية فى مصر من تأخر وجمود فى ذلك القرن ، فذكر أن أحمد باشا الوالى التركى على مصر (١١٦٢ — ١١٦٣ هـ ١٧٤٩ — ١٧٥٠م) كان :
« من أرباب الفضائل ، وله رغبة فى العلوم الرياضية ؛ ولما وصل إلى مصر واستقر بالقلعة ، وقابله صدور العلماء فى ذلك الوقت ، وهم : الشيخ عبد الله الشبراوى — شيخ الجامع الأزهر — ، والشيخ سالم النفراوى ، والشيخ سليمان المنصورى ؛ فتكلم معهم ، وناقشهم وباحثهم ، ثم تكلم معهم فى الرياضيات فأحجموا ، وقالوا : (لا نعرف هذه العلوم) ، فتعجب وسكت » .

ثم ذكر مؤرخنا أن الشيخ الشبراوى طلع على عادته إلى القلعة فى يوم جمعة ، « واستأذن ، ودخل عند الباشا يحادثه ، فقال له الباشا :

— « المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وكنت فى غاية الشوق إلى المجىء إليها ، فلما جئتها وجدتها — كما قيل — : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » .

فقال له الشيخ :

« هى يا مولانا – كما سمعتم – معدن العلوم والمعارف » .

فقال :

– « وأين هى ؟ وأنتم أعظم علمائها ، وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم ، – فلم أجد عندكم منها شيئاً ، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ، ونبذتم المقاصد » .

فقال له : « نحن لسنا أعظم علمائها ، وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام ، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث كعلم الحساب والغبار » .

فقال له :

« وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية ، بل هو من شروط صحة العبادة ، كالعلم بدخول الوقت ، واستقبال القبلة ، وأوقات الصوم والأهلة ، وغير ذلك !! »

فقال :

« نعم ، معرفة ذلك من فروض الكفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية ، كرقة الطبيعة ، وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل ، والأمور العطاردية ؛ وأهل الأزهر بخلاف ذلك ، غالبهم فقراء ، وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق فيندر فيهم القابلية لذلك . »

فقال :

– « وأين البعض ؟ » .

فقال :

– « موجودون فى بيوتهم ، يسعى إليهم » .

ثم أخبره عن الشيخ الوالد (يقصد والده الشيخ حسن الجبرتى ، العالم الرياضى الفلكى الكبير فى ذلك الحين) ، وعرّفه عنه ، وأطنب فى ذكره . . »

ثم ذكر الجبرتى بعد ذلك أن الباشا أرسل إلى الشيخ حسن الجبرتى فاستدعاه لمقابلته ، وأنه « سرّ برؤياه ، واغتبط به كثيراً ، وكان يتردد إليه يومين فى الجمعة . . . وأدرك منه مأموله . . . ولازم المطالعة عليه مدة ولايته ، وكان يقول : لو لم أغنم من مصر إلا اجتماعى بهذا الأستاذ لكفانى . . . »

وأخيراً يختم الجبرتى قصة والده وعلماء مصر مع الباشا بجملة لطيفة فيها نقد ساخر لاذع ، فيقول :

« وكان المرحوم الشيخ عبد الله الشبراوى كلما تلاقى مع المرحوم الوالد يقول : سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا ، فإنه لولا وجودك كنا جميعاً عنده حميراً . . . » .

ب — الصلة بين الشرق والغرب :

لم تنقطع الصلات بين الشرق والغرب — حرباً وسلماً — منذ ظهر الإسلام ، وكانت الحروب الصليبية أبرز صور هذه العلاقات ، ولكن معاركها الحربية انتهت بإخراج صليبيى أوربا من بلدان الشرق الإسلامى، فعادوا إلى قارتهم وهم يشيدون بشجاعة الشرق وقوته وتفوقه ؛ ثم شغلت أوربا منذ ذلك الحين بنهضتها وحروبها القومية الداخلية قروناً ، وشغل الشرق بالمغول حيناً، وبنفسه حيناً آخر ؛ كل ذلك والصلة تضعف شيئاً فشيئاً ، ولكنها لم تنقطع ، فقد ظلت السفن تنقل التجارة بين الشرق والغرب — عبر مصر والشام — طول عصر المماليك ، فكانت تجلب معها إلى موانئ مصر والشام التجار الغربيين ، وكانت تقيم منهم جاليات فى هذه الموانئ ، وكان يقيم مع هذه الجاليات قناصل يرعون مصالح دولهم التجارية ، وكانت المعاهدات والاتفاقات التجارية تعقد بين حكام مصر والشام من المماليك ، وبين ملوك ودوقات هذه الدول الأوربية ، وكانت مصر

---

(١) الجبرتى « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » المطبعة الأهلية . القاهرة ، ١٣٢٢هـ ، ج ١ ، ص ١٩٣ — ١٩٤ .

أخيراً حريصة الحرص كله – طول عهد المماليك – على أن تبقى هذه العلاقة قوية وثيقة ، فهى المنبع الذى يدر عليها المال الوافر ؛ ولكننا نستطيع أن نقول إن الصلة العلمية بين مصر والغرب فى ذلك العهد لم تكن ذات أثر فعّال ، إذ لم يكن لدى مصر وقتذاك علم جديد تقدمه وتزجيه ، ولم يكن الوافدون عليها من تجار أوربا ممن يعنون بنقل العلوم ، ولم تكن أوربا قد خطت بعد – حتى الفتح العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ – فى سبيل نهضتها الجديدة الخطوات المجدية .

وجاء الفتح العثمانى فحجب – كما أسلفنا – مصر وبلدان الشرق عن الاتصال بالغرب ، وعاصره أيضاً كشف الغربيين لطريق رأس الرجاء الصالح ، فتحولت التجارة وتحول الخير معها عن مصر ، وهكذا انقطع الخيط الأخير من الصلات التى كانت تربط بين مصر ودول أوربا ، فبدأت مصر عهداً غريباً من الرهبنة أو التصوف أو الدروشة ، ساعدها عليه كثرة ما أنشئ بها على ذلك العهد من خوانق ورُبَط وزوايا وتكايا ، وتسيطر على عقول الجماهير جماعات من المشعوذين[1] ومدعى الولاية ، فشاعت الخرافات والترهات ، وأصبح الإيمان بالمعجزات يقوم عند الشعب بل عند العلماء مقام الدين .

وهكذا تم لمصر – وهى زعيمة الشرق – كل عوامل الضعف : فقد ضعفت حربياً بتملك العثمانيين لها ، وضعفت اقتصادياً بتحول التجارة عنها ، وضعفت علميا وروحيا بسيطرة أفكار التصوف والدروشة على عقول أهليها .

وكانت أوربا – حتى أواخر القرن الثامن عشر – « لا تزال تحفظ للشرق الإسلامى الشيء الكثير من الاحترام ، لأنها لم تنس بعد بأسه الشديد فى الحروب الصليبية وفتوحات الأتراك ، ولكن نفراً من السائحين بدأ يدخل الشرق ، ويطوف به ، ويتأمل أحواله ، فيزداد عجباً ، ثم يمضى إلى قومه فيتحدث إليهم عما رأى

---

(١) انظر مثلا : قصة الشيخ على البكرى : (الجبرتى ، ج ١ ، ص ١١٣ – ١١٤ ؛ ج ٣ ، ص ٨٤ – ٨٥) ، وقصة خادم المشهد النفيسى والعنزة (نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٦٤) وقصة يوم القيامة (نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٥٢) . . . الخ

من انحطاط المجموعة الإسلامية وضعفها البالغ ، فبدأ الأوروبيون يشكون فى قوة الشرق الإسلامى ، وبدأت هيبته تسقط من أعينهم ، وفكروا فى استعمال طريق البحر الأبيض من جديد »[1].

وفيما نقلناه عن « ڤولنى » تصديق لهذا القول ، ولهذا بدأت دول أوربا — وخاصة فرنسا — تفكر تفكيراً جدياً فى غزو هذا الشرق الضعيف ، وكانت نتيجة هذا التفكير الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ ، يقودها القائد الشاب المغامر « نابليون بونابرت » .

ج — اتصال علماء مصر بعلماء الحملة الفرنسية وأثره :

هزمت جيوش المماليك فى مصر أمام قوى الفرنسيين ، وتفرقت جنودهم شيعاً تلوذ بأذيال الفرار شرقاً نحو الشام ، وجنوباً نحو أقاصى الصعيد وبلاد النوبة والسودان ، ولهذا نستطيع أن نقرر أن الحملة نجحت من الناحية الحربية ، ولكنه كان نجاحاً وقتياً لم يلبث أن انكشف عن صعوبات جديدة ، كانت أهمها مقاومة الشعب المصرى ، وظلت الحملة الفرنسية سنوات ثلاثاً تناضل نضالا عنيفاً حتى عجزت فخضعت ثم ارتدت عن البلاد .

غير أن فريقاً آخر من رجال الحملة نجح نجاحاً مشكوراً فى مهمته التى ألقيت على عاتقه ، ذلك هو فريق العلماء المرافقين للحملة ، وكانت ثمرة جهودهم ذلك الكتاب الضخم النفيس الذى ضم خلاصة أبحاثهم ودراساتهم ، والذى طبع بعد خروجهم وهوكتاب وصف مصر Description de l'Egypte

وقد اتصلت الأسباب بين علماء الحملة وبين نفر من علماء مصر وخاصة : الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، والشيخ إسماعيل الخشاب ، والشيخ حسن العطار ، فعقدت أواصر الصداقة بينهم وبين نخبة من علماء الحملة المستشرقين

(١) حسين مؤنس ، « المرجع السابق » ، ص ٣٦ .

وترددوا على الدار التى اتخذها علماء الحملة مقراً لمعهدهم، وزاروا معاملهم ومكتبتهم وشاهدوا تجاريبهم وأبحاثهم وصورهم ومطبعتهم ، وبهرتهم جميعاً علوم الفرنسيس وأثرت فى فن كل منهم ، فكانت كتابة الجبرتى « فى تاريخه بعد الحملة أدق وأكثر نقداً لسير الحوادث ورجالها مما كانت عليه قبل الحملة . . »[١] ؛ كما أصبح شعر الخشاب أرق حاشية وأسلس أسلوباً ؛ أما العطار فقد انحرف عن علماء عصره ، وترك الدراسات الدينية واللغوية جانباً ، وعنى عناية كبيرة بالدراسات الأدبية ، وكون له فى هذا الميدان مدرسة جديدة كان من تلاميذها الذين حذوا حذوه الشيوخ : إبراهيم الدسوقى ، ومحمد عياد الطنطاوى ، ومحمد عمر التونسى ، ورفاعة رافع الطهطاوى ، وسيكون لهذه النخبة الطيبة جهود محمودة فى حركة الترجمة والحياة الثقافية الحافلة فى عصر محمد على أى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

قال على مبارك فى ترجمته للعطار : « واتصل بناس من الفرنساوية ، فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة فى بلادهم ويفيدهم اللغة العربية ، ويقول : إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها ، ويتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة من المعارف والعلوم ، وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة »[٢] .

وعاش العطار حتى ولى مشيخة الأزهر ، وشهد هذا التغيير فى الأحوال والمعارف الذى تنبأ به ، وخطب فى الحفل الذى أقيم بمناسبة عقد الامتحانات الأولى لمدرسة الطب ؛ وهو أخيراً صاحب الفضل على تلميذه رفاعة رافع الطهطاوى — زعيم النهضة العلمية الحديثة — ، وهو الذى رشحه ليكون إمام البعثة المصرية إلى فرنسا (سنة ١٨٢٦) .

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم ، « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » . القاهرة سنة ١٩٣٨ . ص ٢٤ .

(٢) جمال الدين الشيال « تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على » ، القاهرة ١٩٥١ .

د ـ النهضة العلمية الجديدة فى أوائل القرن التاسع عشر :

وبعد جلاء الفرنسيين عن مصر سنة ١٨٠١ نشب صراع جديد بين قوى ثلاث : المماليك والأتراك والإنجليز ، وانتهى الصراع بخروج الإنجليز من مصر أولا ، ثم بضعف المماليك والأتراك ثانياً ، وكانت هناك ـ وراء الستار ـ قوة أخرى ظلت كامنة قرابة ثلاثة قرون ، فبدأت تظهر على المسرح وتثبت وجودها بعد أن أيقظتها الحملة الفرنسية ، تلك كانت قوة الشعب المصرى .

وبدأت إذ ذاك سياسة إصلاحية جديدة كان عمادها النقل عن الغرب فترجمت الكتب الأوربية فى مختلف العلوم الحديثة إلى اللغة العربية ، وأنشئت المدارس الجديدة على النمط الأوربى ، ثم أرسل المصريون فى بعثات إلى بلدان أوربا المختلفة ليتلقوا العلوم الجديدة فى مدارسها ويعودوا ليحلوا محل الأجانب الذين استعين بهم فى المشروعات الإصلاحية المختلفة [1]، وكان رفاعة رافع الطهطاوى المبعوث الوحيد من بين جميع أعضاء البعثات الذى أعد للتخصص بالترجمة ، وسنرى فى ترجمتنا له أنه بذل الجهد كل الجهد ليكون أهلاً لتحمل العبء الذى ألقى على كتفيه ، وقد أدى لمصر وللثقافة من الخدمات ما جعله حقيقاً باللقب الذى أضفاه عليه مؤرخوه : « زعيم النهضة الثقافية فى مصر فى القرن التاسع عشر » .

٣ ـ الحالة الاجتماعية

ولد رفاعة فى سنة ١٨٠١ وهى السنة التى جلت فيها الحملة الفرنسية عن مصر ـ ، وتوفى سنة ١٨٧٣ فى أواخر عهد اسماعيل ، أى أنه عاصر الأحداث التى توالت على مصر خلال ثلاثة الأرباع الأولى من القرن التاسع عشر .

---

(١) جمال الدين الشيال : المرجع السابق .

ولقد انتقلت مصر ، والشرق الأدنى العربى ، فى القرن التاسع عشر من عصر إلى عصر ، ومن حالة إلى حالة . انتقلت من عصر وسيط مظلم إلى عصر نهضة وإحياء ، ومن ولاية تابعة للدولة العثمانية إلى دولة مستقلة ، وكان للحياة الاجتماعية فى مصر على العصر الأول صورة مميزة ، شرقية فى كل شىء ، فى مناظرها وألوانها وفى أضوائها وظلالها .

وكانت سياسة الدولة العثمانية تهدف إلى أن تبعد ما استطاعت عن طريقة الحكم المباشر ، فلم تكن ترسم للناس سياسة معينة أو محددة للتعليم أو الزراعة أو الشؤون الصحية ، بل كانت تترك الناس يعالجون مشاكلهم فى هذه النواحى جميعاً بالطريقة التى يؤثرون ، وكان يكفيها منهم أن يدينوا لها بالولاء .

وكان لهذه الطريقة من طرق الحكم آثار جد خطيرة ، لعل أبرزها إهمال مرافق البلاد إهمالا شائناً، وذلك لأن الحكومة لم تكن لها — كما أسلفنا — سياسة عامة مرسومة تعمل دواوينها المختلفة على تنفيذها .

وكانت السلطة فى نفس الوقت موزعة بين هيئات مختلفة تسعى كل هيئة منها جاهدة أن تستأثر وحدها بالسلطة ، وأن تقوى هى وأن تعمل على إضعاف الهيئات الأخرى ، فنى القلعة يقيم الوالى أو الباشا العثمانى ، وفى الأقاليم يستبد بالأمور بكوات المماليك ، وعلى حواشى الوادى تقيم عصابات العربان ، وبين هذه القوى جميعاً كانت مصالح الشعب مهدرة مضيعة .

لهذا حاول الشعب أن ينشئ لنفسه أنواعاً من التجمعات ، ترعى مصالحه وتحميه من بغى السلطات الحاكمة واستبدادها ، فأهل الفلاحة — كما يقول الدكتور أحمد عزت عبد الكريم — كان « يهيمن عليهم نظام الالتزام ، والمشتغلون بالصناعات فى المدن منتظمون فى طوائف الحرف ، وأهل العلم من العلماء والمجاورين يكونون طائفة لها اعتبارها وكيانها ، والمتصوفة وأرباب الأشاير لهم طرقهم ، والأجناد منتظمون فى أوجاقاتهم أو تابعون لأمرائهم وسادتهم ، والأعراب والبدو منتمون إلى عشائر معروفة ، والحكومة لا تتصل بأحد من هؤلاء

إلا عن طريق طائفته ، فهى لا تعرف الفرد إلا مندرجاً فى طائفة ، والفرد لا يستطيع أن يمارس نشاطه كله ويضطرب فى الحياة آمناً إلا إذا كان منتمياً لطائفة يخضع لنظمها ويحتمى بظلها ، وهكذا توزعت الأمة — لفظ الأمة تعبير حديث من مصطلحات عصر النهضة (القرن التاسع عشر) — توزعت الأمة بين طوائف مختلفة ، لكل طائفة كيانها وتقاليدها وزعامتها ، وهى تأخذ المنتمين إليها بفنون من التنظيم والتأديب والتهذيب ، كان لا بد منها فى عصر انكمشت فيه وظيفة الدولة وتفتت سلطانها وعزت حماية الفرد .

ولم يكن من اليسير أن يتحول فرد من طائفته إلى طائفة أخرى . فقد جرت العادة أن ينشأ ابن الفلاح فلاحاً وابن الصانع صانعاً ، وابن العالم عالماً ، وليس ثمة ما يدعو ابن الريف — وحاجته من الرزق على ما يقدر مكفولة — إلى أن يهجر قريته إلى المدينة ، فليس فى المدينة إذ ذاك ما يغريه بذلك ، والفلاح المصرى أو ابن المدينة لا يستطيع أن يستحيل جنديا أو مملوكاً أو أعرابيا .. إلخ».

ومع هذا فقد بقيت مصر طوال العصر العثمانى منطوية على نفسها مقفلة النوافذ والأبواب ، وكانت العلاقات بينها وبين العالم الخارجى — وخاصة أوربا — مقطوعة مبتوتة ، فلو أن الحكومات المشرفة على مصر عملت على النهوض بها داخليا خلال هذه المدة لهان الخطب ، ولكن زاد الطين بلة أن هذه العزلة صحبها ركود واضمحلال فى كافة شؤون مصر الداخلية ، حربية كانت أم ثقافية أم اقتصادية أم اجتماعية .

ولم يكد يشرف القرن الثامن عشر على نهايته حتى كان الغرب قد ضاق ذرعاً بهذه العزلة التى تقبع فيها بلدان الشرق الأدنى — ومصر بوجه خاص — ، ولم يشأ هذا الغرب الأوربى أن يسلك السبيل السوى فيدعو مصر إلى أن تقطع حبل هذه العزلة ، وإلى أن تفتح الأبواب والنوافذ كى تسمح لأضواء الحضارة الأوربية الجديدة بالدخول والانتشار ، ولكنه آثر أن يقوم هو بفتح هذه الأبواب والنوافذ

---

(١) «دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة» ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٥٢٩ .

وبالقوة ، قوة السلاح ، فقد كانت تدفعه عوامل الاستعمار ، عوامل الأثرة والاستغلال ، مما أثار قوى المقاومة الداخلية ، وقوى المنافسة الخارجية وبهذا اضطرت جيوش الفرنسيين إلى الجلاء عن مصر بعد أن قضت فى ربوعها سنوات ثلاثاً لم تذق فى خلالها طعم الراحة يوماً واحداً .

وهكذا استيقظت مصر من سباتها الماضى الطويل العميق ولكن يقظتها لم تكن تلقائية رفيقة ، بل كانت يقظة عنيفة مفاجئة دفعت إليها دفعاً ، وكانت الأضواء التى حملها الفرنسيون ـ أضواء السلاح والحضارة والعلم والمجتمع الجديد ـ قوية براقة ، كادت تغشى على عيون المصريين ، ولم يتمالك كبير من علمائهم ـ وهو المؤرخ المعروف عبد الرحمن الجبرتى ـ أن يعبر عنها حين زار مكتبة الفرنسيين ومعهدهم بقوله : « ولهم فيه أمور وتراكيب غريبة ، ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا » .

وشهدت مصر فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر صراعاً عنيفاً بين قوى ثلاث : الأتراك والمماليك والإنجليز ، كل منها تعمل لحسابها ، وتمهد السبيل كى تفوز هى وتصبح لها السيطرة على مصر وشعبها وشؤونها ، ووسط هذا الضباب الكثيف ووسط هذا العثير المتطاير نتيجة لصراع هذه القوى الأجنبية الثلاث بدأت تظهر قوة جديدة ظلت كامنة قرابة ثلاثة قرون ، تلك هى قوة الشعب المصرى .

وأدرك الحكام الذين توالوا على عرش مصر فى القرن التاسع عشر أنه لا بد من رسم سياسة إصلاحية جديدة لانتشال الكنانة من هذه الخراب والفساد التى تردت فيها طوال العصر العثمانى ، ورأوا أن السبيل القويم للإصلاح هو الاتجاه نحو الغرب والاقتباس من نظمه والنقل من علومه ، وخطوا نحو تنفيذ هذه السياسة الإصلاحية خطوات مختلفة ، فبدأوا باستخدام الأجانب والاستعانة بهم ثم قفوا بإرسال المصريين فى بعثات إلى أوربا ، ثم ثلثوا بإنشاء المدارس الجديدة فى مصر على النظام الأوربى .

وكان رفاعة واحداً من المبعوثين إلى أوربا ، نشأ فى قلب الصعيد وتعلم فى الأزهر ، فلما وصل إلى فرنسا شُده لمظاهر الحياة الاجتماعية التى شاهدها هناك فقد كانت تختلف اختلافاً كلياً عن مظاهر الحياة الاجتماعية التى ألفها فى مصر ، فإذا كان المصريون يجلسون على الأرض ويتجمعون عند الأكل حول « الطبلية » أو كرسى فوقه صينية ، ويتناولون الطعام جميعاً من إناء واحد بأيديهم فإن الفرنسيين يجلسون على كراسى وأمامهم مائدة ولكل منهم طبقه وقدحه ويستعملون الشوكة والسكينة والملعقة ، وإذا كان للمنزل المصرى نظامه الخاص من جناح خاص بالسيدات هو « الحرملك » ، وجناح خاص بالرجال هو « السلاملك » وإذا كانت الحال الاجتماعية لا تسمح للجنسين بالاختلاط ، بل تقسر المرأة على الإقامة دائماً فى المنزل ولا تخرج منه إذا خرجت إلا محجبة ، ولا يسمح لها أن تتردد على المجتمعات أو دور العلم أو أن تشارك الرجل فى العمل أو المناقشة ، إذا كان هذا حال المنزل والمجتمع فى مصر ، فإن المنزل فى فرنسا له نظام مختلف ، وللمرأة فيه وفى المجتمع المكانة الأولى ، يحترمها الرجل ويفسح لها فى الطريق أمامه ، ولا يجلس إلا إذا جلست ، وهى تشترك وإياه على قدم المساواة فى العمل وفى معاهد العلم وفى الحلقات الاجتماعية وفى المناقشة .

وهكذا الحال فى الشوارع والحدائق والمنتزهات والمقاهى ودور العلم ، فالصورة غير الصورة ، والنظم غير النظم مما دفع رفاعة إلى أن يرسم صور ما رأى فى فرنسا فى رحلته « تخليص الإبريز » وأن يعقد دائماً المقارنة بين ما رأى هناك وما ألف فى مصر ، ناقداً مرة ، وموافقاً مرة أخرى .

وعاد رفاعة وغيره من المبعوثين المصريين إلى مصر وحاولوا أن ينقلوا إلى المجتمع المصرى بعض المظاهر الطيبة مما رأوا فى أوربا ، وحاولت حكومات مصر فى القرن التاسع عشر وهى تعمل على تنفيذ سياستها الإصلاحية أن تنقل إلى مصر بعض المظاهر الأخرى للحياة الاجتماعية فى الغرب ، وتوافد على مصر فى القرن نفسه عدد كبير من الأوربيين ممن استعانت بهم الحكومة لتنفيذ إصلاحاتها أو

ممن أتوا يلتمسون أبواب الرزق ، وهؤلاء نقلوا معهم مظاهر الحياة الاجتماعية فى الغرب ، وكان وجودهم دافعاً للمصريين إلى محاكاتهم .

وقف المصريون أول الأمر من هذا اللون من الحياة الاجتماعية موقف الكاره، ونقلوا عنها فى حذر ، ولكنها لم تلبث أن اقتحمت عليهم حياتهم — سنة التطور دائماً — ، ففتحت فى القاهرة والإسكندرية والمدن الكبرى الشوارع الجديدة الواسعة ، وبنيت المنازل على النمط الأوربى ، وأنشئت المدارس والحدائق والمتاحف ومعاهد العلم على النظام الغربى ، واقتبس المصريون نظم المائدة والمأكل والمشرب والملبس عن الأوربيين ، وبدأت المرأة المصرية تتخفف من الحجاب شيئاً فشيئاً ، وعرفت مصر الجريدة والمجلة والمسرح والمطبعة .

ويعتبر رفاعة — بحق — أول داعية لتعليم المرأة فى مصر ، بل فى الشرق العربى كله ، فقد ذكر يعقوب أرتين فى كتابه عن التعليم العام فى مصر أن لجنة تنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦ اقترحت العمل لتعليم البنات فى مصر ، وقد كان رفاعة عضواً من أعضاء تلك اللجنة ، غير أن هذا الاقتراح لم ينفذ ، لأن المجتمع المصرى لم يكن على استعداد وقتذاك لقبول هذه الفكرة ، واكتفى بإنشاء مدرسة المولدات والقابلات .

وفى سنة ١٨٧٣ تجددت الفكرة ، وكان رفاعة من أكبر الداعين لها ، ففى هذه السنة أنشئت أول مدرسة لتعليم البنات فى مصر ، وقبل إنشاء المدرسة بسنة واحدة أخرج رفاعة كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » ، وفيه يدعو للفكرة ويمهد لظهورها فيقول : « ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معاً لحسن معاشرة الأزواج ، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فإن هذا مما يزيدهن أدباً وعقلا ، ويجعلهن بالمعارف أهلا ، ويصلحهن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى ، فيعظمن فى قلوبهم ، ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش ، مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها ، وليمكن المرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه

الرجال على قدر قوتها وطاقتها ، فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرونه بأنفسهن وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن عن الأباطيل ، وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل ، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة . . . إلخ » .

لقد ظهر فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين رجال أفذاذ كانوا روّاد الحركات الإصلاحية فى الحياتين الفكرية والاجتماعية وقد أهلهم لهذه المنزلة أنهم جمعوا بين الثقافة العربية الشرقية الأصيلة وبين الثقافة الغربية الأوربية الحديثة ، وكان رفاعة أول نموذج لهؤلاء الروّاد ، ويشبهه فى هذا جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين وطه حسين فإن السر فى عظمتهم أنهم جميعاً قبسوا قبساً من ثقافة الشرق وقبساً من ثقافة الغرب .

الفصل الثانى

رفاعة الطهطاوى فى عصره

١ ــ نشأته الأولى

ولد رفاعة فى طهطا سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) ، وإليها ينسب ، وفيها تلقى علومه الأولى ؛ وفى سنة ١٢٣٢ هـ (١٨١٧ م) وفد على القاهرة ، والتحق بالأزهر ومكث به نحو خمس سنوات ختم فيها دروسه ؛ فلما أتمّ الحادية والعشرين من عمره أصبح أهلا للتدريس ، فدرس فى الأزهر ، وكان يتردد أحياناً على مدينته طهطا فيلقى على أهليها بعض دروسه.

وقد كان رفاعة منذ عهده الأول مدرساً ممتازاً ، فأقبل عليه الطلاب وأفادوا منه ، وكانت حلقات دروسه فى السنتين التاليتين لتخرجه حافلة دائماً بالمستمعين من التلامذة والمشايخ . يقول تلميذه ومؤرخ حياته صالح مجدى :

« وكان ــ رحمه الله ــ حسن الإلقاء بحيث ينتفع بتدريسه كل من أخذ عنه ، وقد اشتغل فى الجامع الأزهر بتدريس كتب شتى فى الحديث ، والمنطق والبيان ، والبديع ، والعروض ، وغير ذلك ؛ وكان درسه غاصا بالجمّ الغفير من الطلبة ، وما منهم إلا من استفاد منه ، وبرع فى جميع ما أخذه عنه ، لما علمت من أنه كان حسن الأساوب ، سهل التعبير ، مدققاً محققاً ، قادراً على الإفصاح عن المعنى الواحد بطرق مختلفة ، بحيث يفهم درسه الصغير والكبير بلا مشقه ولا تعب ، ولا كدّ ولا نصب » .

(١) صالح مجدى « حلية الزمن بمناقب خادم الوطن » مخطوطة بدار الكتب المصرية .

وكان من حسن حظ رفاعة أنه تتلمذ فى الأزهر على الشيخ حسن العطار ، فقد كان هذا الشيخ — كما سبق أن ذكرنا — سابقاً لعصره ، طوف فى الأرض وسافر براً وبحراً ، وزار الشام، ووصل فى تطوافه إلى الآستانة ، وأقام بها سنوات وأفاد من هذه الرحلات ، واتسع أفق تفكيره، ولما نزلت الحملة الفرنسية بأرض مصر اتصل ببعض علمائها ، ولقنهم اللغة العربية ، كما أخذ عنهم بعض علومهم ، وأعجب بما وصل إليه الشعب الفرنسى من رقى وحضارة ، وقارن فى نفسه بين علوم الفرنسيين التى رأى بعض مظاهرها فى دار المجمع ، واستمع لبعض أفكارها فى حديثه إلى علماء المجمع ، وبين علوم المصريين التى درسها ويدرِّسها فى الأزهر ، فرأى الفرق كبيراً والبون شاسعاً ، وتنبأ لهذا البلد بنهضة علمية سريعة تنهج فيها نهج أوربا ، قال : «لا بد أن تتغير حال بلادنا ، ويتجدد لها من المعارف ما ليس فيها» وبدأ هو بنفسه، فأقبل على كتب لم تكن تدرس وقتذاك فى الأزهر ، أقبل على كتب فى التاريخ والجغرافيا ، والطب والرياضة ، والفلك والأدب ؛ وقرأ الكثير من هذه الكتب وتفهمها ، غير أنه يبدو أن نظام التدريس فى الأزهر لم يكن ليسمح له أن يدرس بعض هذه الكتب ، أو ما أفاد منها ، فإن سمحت النظم فإن المجموعة التى كانت تحيط به من شيوخ وطلاب ما كانت لتستسيغ هذه العلوم أو تقبلها ، بل لعلها كانت تتهم المشتغلين بها بشىء من الزيغ عن الجادة ، والبعد عن علوم السلف ، وعما يجب أن يلتزمه رجل الدين.

ولكن العطار كان ذا شخصية فذة وطريقة جديدة ، لهذا لم يلبث أن اختص به نفر من تلاميذه الممتازين ، فقربهم إليه ، وأقرأهم ما كان يقرأ [1] ورغبهم فى هذه العلوم الجديدة فأقبلوا عليها ؛ وكان رفاعة أقرب تلاميذ العطار وأحبهم إليه ، وقد فرح الأستاذ بنبوغ تلميذه فى التدريس بعد تخرجه ، فلبث

---

(١) يقول (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٣ ، ص ٥٤) : «وله رحمه الله (يقصد رفاعة) منزلة خاصة عند الشيخ حسن العطار ، فكان يشترك معه فى الاطلاع على الكتب الغربية التى لم تتداولها أيدى علماء الأزهر» .

يشمله برعايته وحسن توجيهه حتى رشحه إماماً لإحدى فرق الجيش الجديد .

وفى سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م أوفدت أول بعثة كبيرة إلى فرنسا ، وهنا أيضاً طلب إلى العطار « أن ينتخب من علماء الأزهر إماماً للبعثة يرى فيه الأهلية واللياقة ، فاختار الشيخ رفاعة لتلك الوظيفة »[١] .

سافر رفاعة ليكون إماماً للبعثة – لا طالباً من طلابها – ، ولكن رفاعة كان ذا نفس طموحة وآمال عريضة ، وحب للعلم ، وشغف بالبحث ، فأعد العدة بينه وبين نفسه أن يقبل على التحصيل منذ أن يغادر أرض مصر ، حتى يعود إلى وطنه خيراً مما غادره ، وقد بر بوعده لنفسه ، فحصل فى فرنسا الكثير ، وكان أنبغ أعضاء بعثته ، ثم كان زعيم النهضة العلمية فى عصره وقائدها بعد عودته ، وهكذا أراد الله – كما يقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين – « أن يكون الإمام فى الصلاة إماماً للحركة العلمية فى مصر »[٢] .

وذهب التلميذ الفتى للأستاذ الشيخ يودعه ويشكره ، ويسأله النصيحة ، فدعا له الشيخ وباركه ، وزوده بما يزود به الأستاذ المستنير تلميذه النابغ ، وطلب إليه قبل أن يغادره أن يعنى منذ اللحظة الأولى بتقييد مشاهداته فى رحلته هذه ، فالشيخ – كما يقول تلميذه – « مولع بسماع عجائب الأخبار ، والاطلاع على غرائب الأمصار »[٣] .

وقد بر التلميذ بوعده ، فبدأ يسجل ملاحظاته منذ أن غادر الإسكندرية ، وبعد عودته قدم رحلته « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » إلى أستاذه ، فأعجب بها وقرظها لولى الأمر ، فطلبها وأمر أن تقرأ له ، وحازت رضاءه ، فأمر أن تترجم إلى اللغة التركية ، وأن تطبع النسختان : العربية والتركية فى مطبعة بولاق ، وأن توزع نسخ من الطبعتين على موظفى حكومته .

(١) المرجع السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٢) أحمد أمين : « زعماء الإصلاح » .

(٣) رفاعة : « تخليص الإبريز » ، ص ٤ .

٢ ــ رفاعة فى باريس

فى يوم الخميس من شهر رمضان سنة ١٢٤١ هـ (٢٤ أبريل ١٨٢٦م) أبحرت السفينة من الإسكندرية تحمل رفاعة وزملاءه ، وفى التاسع من شهر شوال وصلت بهم إلى مارسليا ، ومنذ وطئت قدما رفاعة أرض هذه المدينة بدأ يتعلم اللغة الفرنسية . يقول فى رحلته : « وتعلمنا فى نحو ثلاثين يوماً التهجى » .

وفى باريس قضى تلاميذ البعثة جميعاً نحو سنة ، وهم يقيمون معاً فى بيت واحد ، ويشتركون معاً فى دراسة مواد واحدة . يقول رفاعة : «كنا نقرأ فى الصباح تاريخ ساعتين ، ثم بعد الظهر درس رسم ، ثم درس نحو فرنساوى ، وفى كل جمعه ثلاثة دروس من علمى الحساب والهندسة » .

وكانت هذه الخطة ترمى إلى عزل تلاميذ البعثة حتى لا يفسدهم الاختلاط ، أو الحياة فى باريس ، وحتى يستطيعوا التوفر على دراستهم ليحصلوا العلوم التى يريدون على أحسن وجه ، وفى أسرع وقت ، ولكن هذه العلوم التى أوفدوا لدراستها مودعة فى بطون المؤلفات الفرنسية ، ولا سبيل إليها إلا بإتقان هذه اللغة ــ حديثاً وقراءة وفهماً ــ ، ولا سبيل إلى هذا الإتقان إلا أن يختلط هؤلاء الشبان بأندادهم من الفرنسيين حتى تستقيم ألسنتهم .

أحس بهذا النقص المشرفون على البعثة ، كما أحس به أعضاء البعثة أنفسهم ، لهذا صدرت الأوامر بتوزيع هؤلاء المبعوثين ، فتفرقوا « فى مكاتب متعددة ، كل اثنين أو ثلاثة أو واحد فى مكتب مع أولاد الفرنساوية ، أو فى بيت مخصوص ، عند معلم مخصوص ، بقدر معلوم من الدراهم فى نظير الأكل والشرب والسكنى والتعليم . . . » ، وفى هذه المكاتب أو « البانسيونات » كان التلاميذ المصريون يقضون ليلهم ونهارهم فى التحصيل ، ولم يكن يسمح لهم

بالخروج إلا فى يوم الأحد ، أو بعد ظهر الخميس ، أو فى الأعياد الفرنسية ؛ وكان يحدث أحياناً أن يخرج بعضهم بعد العشاء إن لم يكن يشغله درس أو واجب .

وكان رفاعة أكثرهم انهماكا فى عمله ، وأشدّهم إقبالا عليه ، ولم تكن تسعفه أوقات فراغه فى النهار ، فكان يقضى معظم ساعات الليل ساهراً بين كتبه ودروسه يقرأ ويتفهم ويترجم ، حتى أصيبت عينه اليسرى بضعف ونصحه الطبيب بالراحة ، ونهاه عن المطالعة فى الليل ، ولكنه « لم يمتثل لخوف تعويق تقدمه »[1] .

ولم يقنع رفاعة بالكتب التى تشترى له على حساب البعثة ، فقد شعر بلذة المعرفة ، فأقبل يشترى كتباً أخرى من ماله الخاص ، ثم أدرك أن دروس أساتذته لا تكفى لإشباع نهمه ، فاستأجر معلماً خاصا يدرس له أكثر من سنة ، وكان يدفع له أجره من مرتبه الخاص .

أرسل رفاعة إلى فرنسا ليكون إماماً للبعثة ، ولكن يبدو أن الأوامر صدرت فى آخر لحظة أن يسمح له بالدراسة ، فإن أقبل ووفق فليوجه إلى إتقان الترجمة وذلك لأن ثقافته الأزهرية فى اللغة العربية ترشحه لهذا العمل إذا ألم باللغة الفرنسية وأتقنها ؛ وهذا عمل واسع عريض ، لأنه غير محدود ، فحكومة ذلك العهد كانت مقبلة على الترجمة فى كل علم وفن : فى الهندسة والطب ، والفنون العسكرية ، والتاريخ والجغرافيا . . . إلخ ؛ فواجب رفاعة إذن أن يقرأ كتباً فى كل هذه العلوم ، وأن يمرن على الترجمة فيها جميعاً ، وياله من واجب شاق ! ! ولكن همة رفاعة كانت همة عالية ، فاستسهل الصعب ، وأقبل ووفق .

وقد ذكر رفاعة فى رحلته العلوم والفنون التى درسها ، وعين الكتب التى قرأها والتى ترجمها أو بدأ يترجمها فى باريس ، ومنها نلحظ أن ثقافته كانت موسوعية

---

(١) « تخليص الإبريز » ، ص ١٧٢ .

(٢) من تقرير أستاذ رفاعة المسيو « شواليه » ، المرجع السابق ، ص ١٩٦ .

فقد قرأ كتباً كثيرة فى مختلف العلوم مع أساتذته ، ثم قرأ كتباً كثيرة أخرى وحده ، وإنا لنحس فى جهوده التى ذكرها أنه ما كان يفرغ من قراءة كتاب فى أى علم من العلوم أو فن من الفنون حتى يقبل على ترجمته ، يريد بذلك أن ينقل لمصر وبنيها هذا العلم الجديد عله يبعثهم إلى نهضة جديدة تنتهى بهم إلى أن يكونوا كأبناء أوربا حضارة ورقيا ، ولكن أنى له الوقت لترجمة هذه الكتب جميعاً ؟ ومع هذا فقد بدأ ، وترجم كتباً أو رسالات صغيرة ، ثم ترجم فصولا من الكتب الكبيرة ، وكأنى به قد ترك الباقى حتى يعود لمصر ، فيتم ما بدأ ، وقد فعل ؛ ولكن جهده جهد إنسانى محدود ، ووقته وقت محدود ، وهنا ترقب الفرص — بعد عودته — حتى سنحت فعرض مشروعه لإنشاء مدرسة الألسن ، وقد أنشئت ، واتسعت بعد إنشائها حركة الترجمة ، واستطاع رفاعة أن يحقق بعض آماله ، ويؤيدنا فى هذا أن معظم الكتب الأولى التى ترجمها خريجو الألسن هى الكتب التى قرأها رفاعة فى باريس ، والتى كان يتمنى أن يترجمها بنفسه[1] .

قضى رفاعة سنة فى باريس ، ثم عقد له ولزملائه امتحان فى نهاية هذه السنة ، فنجح رفاعة بتفوق ، وأرسل إليه « مسيو جومار » مدير البعثة جائزة التفوق وهى كتاب « رحلة أنخرسيس إلى بلاد اليونان » فى «سبعة مجلدات جيدة التجليد ، مموهة بالذهب » ، وأرسل إليه مع الجائزة خطاباً كله تشجيع وتقدير لما بذل من جهد ولما نال من نجاح [2] .

وبعد عام آخر عقد امتحان ثان فوفق فيه كما وفق فى سابقه ، وكانت جائزته هذه المرة كتابين من تأليف المستشرق الفرنسى « دى ساسى » ، وهما : « الأنيس المفيد للطالب المستفيد » و « جامع الشذور من منظوم ومنثور »[3] .

---

(١) انظر تقرير رفاعة عن الكتب التى قرأها وعن جهوده فى الدراسة والترجمة إبان إقامته فى باريس فى : (رفاعة : « تخليص الإبريز » ، ص ١٨٦ — ١٨٧) و (الشيال : « رفاعة الطهطاوى» ، مجموعة أعلام الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤٦ ، ص ٢١ — ٢٤) و (الشيال : « تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على» ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٢٥ - ١٢٦) .

(٢ ، ٣) « تخليص الإبريز » ، ص ١٩١ — ١٩٢ .

وفى باريس اتصل الشيخ رفاعة بكبار المستشرقين الفرنسيين ، وخاصة : « بسلفستر دى ساسى » و « كوسان دى برسيڤال » ، ونشأت بينه وبين هذين العالمين صداقة متينة ، وكان كل منهما يقدر جهد الشيخ التلميذ وعلمه ، وقد تبودلت بينه وبينهما رسائل كثيرة ، أثبت بعضها رفاعة فى رحلته ، وقد أطلعهما قبيل عودته على مخطوطة رحلته ، فأعجبا بها ، وكتبا عنها تقريظاً ، وأرسل كل منهما للمسيو « چومار » — مدير البعثة — خطاباً كله ثناء وتقدير لرفاعة وكتابه[1] .

وبعد خمس سنوات عقد لرفاعة الامتحان النهائى ، فجمع « چومار » مجلساً كان القصد منه — كما يقول رفاعة — : « معرفة قوة الفقير فى صناعة الترجمة التى اشتغلت بها مدة مكثى فى فرنسا . . . »

وتقدم رفاعة إلى لجنة الامتحان بخلاصة جهوده فى الترجمة ، وهى اثنتا عشرة رسالة ترجمها عن الفرنسية إلى العربية ، وهذا بيانها :

١ — نبذة فى تاريخ إسكندر الأكبر ، مأخوذة من تاريخ القدماء .

٢ — كتاب أصول المعادن .

٣ — روزنامة (تقويم) سنة ١٢٤٤ ، ألفه مسيو « چومار » لاستعمال مصر والشام ، متضمناً لشذرات علمية وتدبيرية .

٤ — كتاب دائرة العلوم فى أخلاق الأمم وعوائدهم .

٥ — مقدمة جغرافية طبيعية مصححة على « مسيو دهنبلض » .

٦ — قطعة من كتاب « ملطبرون » فى الجغرافية .

٧ — ثلاث مقالات من كتاب « لجندر » فى علم الهندسة .

٨ — نبذة فى علم هيئة الدنيا .

٩ — قطعة من عمليات رؤساء ضباط العسكرية .

---

(١) انظر نص الخطابات فى المرجع السابق ، ص ١٨٠ — ١٨٢ .

١٠ – أصول الحقوق الطبيعية التي تعتبرها الإفرنج .
١١ – نبذة في الميثولوجيا – يعني جاهلية اليونان وخرافاتهم .
١٢ – نبذة في علم سياسات الصحة .

كذلك قدم رفاعة للجنة الامتحان كراسة أخرى فيها مخطوطة رحلته إلى باريس، وذلك لأن هذه الرحلة ليست تأليفاً كلها ، بل فيها نبذ كثيرة مترجمة في مختلف العلوم .

ولم تقنع لجنة الامتحان بهذه الجهود المكتوبة ، ورأت أن تختبره اختباراً شفهياً لتتأكد من مقدرته على الترجمة الصحيحة ، فأحضرت له بعض الكتب المطبوعة في بولاق ، فترجم بعض فقراتها بسرعة ، ثم « قرأ بالفرنساوي مواضع منها ما هو صغير ، ومنها ما هو كبير في « كازيطة » مصر المطبوعة في بولاق (يقصد الوقائع المصرية) .

ووفق رفاعة في هذا الامتحان ، وقررت اللجنة أنه تخلص من هذا الامتحان على وجه حسن ، « فأدى العبارات حقها من غير تغيير في معنى الأصل المترجم » ، ولكنها أخذت عليه أنه « ربما أحوجه اصطلاح اللغة العربية أن يضع مجازاً بدل مجاز آخر ، من غير خلل في المعنى المراد » ، واعترض عليه في الامتحان بأنه في بعض الأحيان قد لا يكون في ترجمته مطابقة تامة بين المترجم والمترجم عنه ، وأنه ربما كرر ، وربما ترجم الجملة بجمل ، والكلمة بجملة ، « ولكن من غير أن يقع في الخلط ، بل هو دائماً محافظ على روح المعنى الأصلي »[١].

اجتاز رفاعة الامتحان بعد أن قضى في فرنسا خمس سنوات طوال ، أقام فيها على الدرس والتحصيل إقبال الطالب المجد المحب لعمله ، وقد قرأ في هذه السنوات كتباً شتى في علوم متباينة ، وترجم الكثير من هذه الكتب ، ولكنه

(١) « تخليص الإبريز » ، ص ١٩٤ .

شغف أكثر ما شغف بعلمى التاريخ والجغرافيا ، متأثراً بميله الخاص ودراسته الأدبية الأولى فى الأزهر — فرشح نفسه لترجمة هذين العلمين ، فهو يقول فى خاتمة رحلته : « وإن شاء الله تعالى . . . يصير التاريخ على اختلافه منقولا من الفرنساوية إلى لغتنا . . . فقد تكفلنا بترجمة علمى التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة بمشيئة الله . . . »[1].

٣ ـ جهود رفاعة الأولى
بعد العودة من البعثة

فى رمضان سنة ١٢٤١ هـ غادر رفاعة الإسكندرية مرتحلا إلى فرنسا ، وفى رمضان سنة ١٢٤٦ غادر باريس عائداً إلى مصر ؛ خمس سنوات كاملة تغير فيها الشيخ عقلا وعلماً ، وتفكيراً وآمالا ، لكنه لم يتغير ، بل لم يتأثر ديناً وأخلاقاً. يقول على مبارك : « ولم تؤثر إقامته بباريز أدنى تأثير فى عقائده ، ولا فى أخلاقه وعوائده . . . »[2].

وسافر إلى القاهرة ، وكانت قد سبقته إليها تقارير مسيو « چومار » الكثيرة عنه ، وكلها مدح وتقريظ لجهوده ، وتقدير لعمله ، فانتهى به الأمر إلى تعيينه مترجماً بمدرسة الطب .

لبث رفاعة مترجماً فى مدرسة الطب نحو سنتين ، ويبدو أنه كان فى هذه المدرسة مصححاً ومحرراً أكثر منه مترجماً ، إذ لم يعرف أنه ترجم فى الطب غير الرسالة الصغيرة التى ترجمها وهو فى باريس وضمنها رحلته ، ولكنه قام فى هذه الفترة بمراجعة كتاب « التوضيح لألفاظ التشريح » فى الطب البيطرى ، الذى

---

(١) نفس المرجع ، ص ٢٤٤ .

(٢) على مبارك : « الخطط التوفيقية » ، ج ١٣ ، ص ٥٤ .

ترجمه يوسف فرعون ، وصححه الشيخ مصطفى حسن كساب .

وفى سنة ١٢٤٩هـ نقل رفاعة مترجماً بمدرسة الطوبجية بطرة حيث قام بترجمة بعض الكتب الهندسية والجغرافية اللازمة لطلاب هذه المدرسة ، ومنها «كتاب الهندسة» ، وكتاب «التعريبات الشافية لمريد الجغرافية» .

وفى أوائل سنة ١٢٥٠هـ ظهر فى مصر مرض الطاعون ، وانتشر فى القاهرة وفى كثير من المدن الأخرى ، فطلب رفاعة إجازة وسافر إلى بلدته طهطا ، ولبث هناك نحو ستة أشهر ، زار خلالها الأهل والأقارب ، ولكنه لم ينعم بالراحة ، بل حمل معه الجزء الأول من «جغرافية ملطبرون» Malte Brun . وكان قد بدأ فترجم منه صفحات وهو فى باريس ، فأكمل ترجمة الجزء الأول كله .

٤ ـ رفاعة ومدرسة الألسن

ا ـ مدرسة الإدارة الملكية

كانت البلاد فى ذلك الوقت فى حاجة إلى عدد كبير من الموظفين المثقفين ثقافة جديدة لينهضوا بإدارة ما أنشأت الحكومة من دواوين ومصالح وأقلام ، فكانت المحاولة الأولى إنشاء مدرسة الإدارة الملكية فى جمادى الأولى سنة ١٩٥٠هـ (١٨٣٤م) فاختير لها ثلاثون تلميذاً من تلاميذ الدرسخانة الملكية ، وعين للتدريس بها أرتين شكرى وأسطفان رسمى عضوا البعثة إلى فرنسا وهما اللذان تخصصا بدراسة الإدارة الملكية .

ونصت لائحة المدرسة على أن تدرس مادة الترجمة دراسة عملية للتلاميذ ، فإنه «لما كان من أغراض المدرسة تخريج مترجمين وموظفين لفروع الإدارة

المصرية ، فقد أشارت اللائحة بأن يقدم للتلاميذ — بعد تقدمهم فى اللغة الفرنسية — كتب فى التاريخ سهلة ، وتترجم لهم درساً درساً ، حتى إذا تمت ترجمة الكتاب وإصلاحه قامت المطبعة على طبعه ، وأنه لأجل حصول ائتلاف التلامذة بالمصالح المصرية تقدم للمدرسة نسختان من الوقائع المصرية ، وتترجم لتلاميذها المواد المشتملة على عمارية الملك بجرنالات أوربا »[١] .

غير أن هذه المدرسة لم تعمر طويلا ، فقد ألغيت بعد قليل ، ونقل تلاميذها إلى مدرسة الألسن فى آخر سنة ١٢٥١ هـ (١٨٣٦ م)

ب — مدرسة التاريخ والجغرافيا

أنشئت فى حدود سنة ١٢٥٠هـ ، وألحقت بمدرسة المدفعية ، وكان ناظرها ومدرسها الوحيد هو رفاعة رافع الطهطاوى ، وكان القصد من إنشائها تخريج مدرسين للجغرافيا فى المدارس الحربية المختلفة ، وقد ألغيت هذه المدرسة عند إنشاء مدرسة الألسن ، وبهذا كانت هاتان المدرستان الخطوتين التمهيديتين لإنشاء مدرسة الألسن .

حـ — مدرسة الألسن

أنشئت فى أوائل سنة ١٣٥١ هـ (١٨٣٥) باسم مدرسة الترجمة ، ثم غير اسمها فأصبح مدرسة الألسن ، وجعل مقرها السراى المعروفة ببيت الدفتردار بحى الأزبكية ، حيث كان يقوم فندق شبرد القديم .

---

(١) عزت عبد الكريم : « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » ، ص ٢٢٨ (عن وثائق عابدين) .

(٢) انظر تفصيل الحديث عن هذه المدرسة فى : (الشيال : « رفاعة الطهطاوى » ، ص ٣٥ — ٣٩) و (الشيال : « تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على » ، ص ١٣٢ — ١٣٤) .

وقد أنشئت هذه المدرسة تحقيقاً لاقتراح رفاعة الطهطاوى . يقول على مبارك : « ثم عرض (أى رفاعة للجناب العالى أن فى إمكانه أن يؤسس مدرسة ألسن يمكن أن ينتفع بها الوطن ، ويستغنى عن الدخيل ، فأجابه إلى ذلك ، ووجه إلى مكاتب الأقاليم لينتخب منها من التلامذة ما يتم به المشروع ، فأسس المدرسة »[١].

وكان تلاميذ المدرسة فى أول عهدها ثمانين تلميذاً ، اختار رفاعة معظمهم من مكاتب الأقاليم ، وضم إليهم تلاميذ مدرسة الإدارة الملكية بعد إلغائها ، ولكن هذا العدد زاد بعد ذلك حتى أصبح مائة وخمسين ، وكانوا ينقسمون إلى قسمين ويرأس كل قسم أستاذه ، ويساعده بعض التلاميذ المتقدمين .

وكانت مدة الدراسة بالمدرسة خمس سنوات قد تزداد إلى ست سنوات ، وفى سنة ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ م) اكتملت المدرسة ، وأصبح بها ٥ فرق ، وخرجت أول فريق من تلامذتها ، وكان تلاميذ الفرقة الأولى (أى الأخيرة) « يترجمون كتباً فى التاريخ والأدب ، ويقوم على إصلاحها أستاذهم ومدير مدرستهم رفاعة رافع ، ثم تقدم إلى المطبعة فتطبع وتنشر كتباً يقرأها المدرسون والتلاميذ . . . »[٢]

غير أن العناية بتدريس اللغات فى مدرسة الألسن لم تكن فى درجة واحدة ، فقد كانت العناية كبيرة بتدريس اللغتين العربية والفرنسية ، وذلك لأسباب واضحة ، منها أن كل التلاميذ كانوا من المصريين الذين يعرفون العربية ولا يعرفون التركية ، ومنها أن ناظر المدرسة وأستاذها رفاعة كان يتقن هاتين اللغتين ، ومع هذا فقد درست اللغة الإنجليزية وقتاً ما بمدرسة الألسن ، أما اللغة التركية فقد كانت العناية بها ضعيفة .

وقد عهد إلى رفاعة — إلى جانب التدريس — بإدارة المدرسة ، وكان من واجباته :

١ — أن يشرف على المدرسة من الناحيتين الفنية والإدارية .

---

(١) على مبارك : « الخطط التوفيقية » ، ج ١٣ ، ص ٥٤ .
(٢) عزت عبد الكريم ، « المرجع السابق » ، ص ٣٣٢ .

٢ ــ أن يدرس للتلاميذ الأدب والشرائع الإسلامية والغربية .

٣ ــ أن يختار الكتب التي يرى ضرورة ترجمتها ، ويوزعها على المترجمين من تلاميذ المدرسة وخريجيها الملتحقين بقلم الترجمة ، ويشرف على توجيههم فى أثناء قيامهم بالترجمة ، ويقوم بمراجعة الكتب وتهذيبها بعد ترجمتها وكان رفاعة يرأس كل عام لجنة الامتحان التى تعقد لتلاميذ مكاتب المبتديان والأقاليم ، فيسافر إليها فى النيل ، ويمتحن تلاميذها ، ويصحب المتفوقين منهم ليلحقهم بالمدرسة التجهيزية الملحقة بمدرسة الألسن .

وكان إخلاص رفاعة لمهنته يدفعه إلى عدم التقيد بأوقات محددة للدراسة ، فكان يستمر فى الدرس ثلاث ساعات أو أربع ما دام يجد فى نفسه رغبة ، وفى تلاميذه قبولا . يقول على مبارك : « كان دأبه فى مدرسة الألسن ، وفيما اختاره للتلاميذ من الكتب التى أراد ترجمتها منهم ، وفى تأليفاته وتراجمه خصوصاً أنه لا يقف فى ذلك اليوم أو الليلة على وقت محدود ، فكان ربما عقد الدرس للتلامذة بعد العشاء ، أو عند ثلث الليل الأخير ، ومكث نحو ثلاث أو أربع ساعات على قدميه فى درس اللغة ، أو فنون الإدارة أو الشرائع الإسلامية والقوانين الأجنبية ، وله فى الأولى مجاميع لم تطبع ، وكذلك كان دأبه معهم فى تدريس كتب فنون الأدب العالية بحيث أمسى جميعهم فى الإنشاءات نظماً ونثراً أطروفة مصرهم ، وتحفة عصرهم ، ومع ذلك كان هو بشخصه لا يفتر عن الاشتغال بالترجمة والتأليف ، وكانت مجامع الامتحانات لا تزهو إلا به »[1].

وقد حقق خريجو الألسن الغرض من إنشاء المدرسة ، فعين المتقدمون من أول فريق تخرج فى سنة ١٨٣٩ م مدرسين للغتين العربية والفرنسية فى نفس المدرسة وفى مدرسة المهندسخانة ، ولما أنشىء قلم الترجمة فى أوائل سنة ١٢٥٨ هـ (١٨٤١ م) ألحق به كل خريجى المدرسة ، غير أن الواحد منهم لم يكن يمنح

---

(١) على مبارك « الخطط التوفيقية » ، ج ١٣ ، ص ٥٤ .

الرتبة حتى يترجم كتاباً ، وقد ألحق كثيرون منهم مدرسين بالمدارس الأخرى ، أو موظفين بالمصالح المختلفة .

ثم نمت المدرسة بعد ذلك نمواً سريعاً ، فألحقت بها المدرسة التجهيزية ، وأنشئت بها أقسام جديدة لإعداد الموظفين الإداريين والقضاة ، وأدى هذا النمو إلى ازدحام المدرسة بالطلاب ، حتى كان التلاميذ من فرق مختلفة يجلسون فى حجرة واحدة لتلقي علوم متباينة على أساتذة متباينين ، فعمل رفاعة على تنظيم بناء المدرسة ، حتى صار « لكل درس محل مخصوص بباب مخصوص » .

د – قلم الترجمة

أنشىء فى أوائل سنة ١٢٥٨ هـ (١٨٤١ م) تنفيذاً لإشارة لجنة تنظيم التعليم فقد رأت اللجنة « أن الواجب يقضى بأن تكون التراجم مضبوطة مستوفية حقها من الصحة ، سليمة من الخطأ ، فلهذا ، ولكون ترجمة كتب العلوم والفنون ليست مقصورة على معرفة اللغة فحسب ، بل متوقفة أيضاً على الإلمام بالعلم أو الفن المترجم كتابه ، فقد أنشأت اللجنة غرفة الترجمة الخاصة بالمترجمين ».

وقسمت هذه الغرفة إلى أربعة أقلام :

١ – قلم ترجمة الكتب العلمية والرياضية .

٢ – قلم ترجمة كتب العلوم الطبية والطبيعية .

٣ – قلم ترجمة الأدبيات أو « المواد الاجتماعية » كالتاريخ والجغرافيا والمنطق والأدب والفلسفة والقوانين والقصص . . . إلخ .

٤ – قلم الترجمة التركية .

ثم ألحق بهذه الأقسام عدد من المبيضين لتبييض الكتب بعد ترجمتها وإرسالها إلى ديوان المدارس للاطلاع عليها، فكان يشير بطبع النافع القيم منها[1].

---

(١) راجع كتابنا : (تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، ص٤٢ وما بعدها).

هـ ــ مصير هذه المؤسسة

عاشت مدرسة الألسن نحو الخمسة عشر عاماً بدأت تسيطر فيها على شؤون الثقافة العامة فى مصر ، وأنتجت فى إبانها الإنتاج العلمى الوافر ، فلما ولى العرش عباس الأول ــ ولم يكن على انسجام مع رجال جده وعمه ، وخاصة رفاعة ــ أخذ يسعى سعيه للقضاء على هذه المؤسسة الثقافية ، فبدأ بإلغاء قسم الفقه بالمدرسة ، ثم ثنى بتصفية تلاميذ المدرسة ، وفصل عدد كبير منهم ، وفى الشهر الأخير من عام ١٢٦٥ هـ (أكتوبر ١٨٤٩ م) صدر الأمر بنقل مدرسة الألسن إلى مكان مدرسة المبتديان بالناصرية ، وبذلك حرمت المدرسة مكانها ، ولم تمض أيام بعد ذلك حتى ألغيت مدرسة الألسن إلغاء تاماً فى المحرم سنة ١٢٦٦ هـ (نوفمبر ١٨٤٩ م) وضم تلامذتها إلى المدرسة التجهيزية قبيل إلغائها ، وفى أواخر سنة ١٢٦٦ هـ سافر رفاعة إلى الخرطوم ليكون ناظراً ومدرساً لمدرسة الخرطوم الابتدائية .

أما قلم الترجمة فقد خضع لتجربة جديدة فى الشهور القليلة التى ولى فيها إبراهيم باشا الحكم ، وصدر الأمر بتقسيمه تقسيماً جديداً إلى قلمين :

قلم للترجمة التركية ويشرف عليه «كانى بك» .

وقلم للترجمة العربية ويشرف عليه رفاعة بك .

غير أن إلغاء مدرسة الألسن فى أوائل عصر عباس قد استتبع إلغاء قلم الترجمة وخاصة بعد نفى رفاعة إلى السودان .

٥ ــ جهودعلمية أخرى

ا ــ مراجعة الكتب المترجمة فى الفنون المختلفة

ستة عشر عاماً ظل فيها رفاعة ناظراً لمدرسة الألسن ومدرساً بها ، ومشرفاً على قلم الترجمة ، ومصححاً لجميع الكتب التى ترجمها تلاميذه ، ومع هذا فقد كان يلجأ إليه ــ فى تلك الفترة ــ المترجمون من أعضاء البعثات فى المدارس الخصوصية الأخرى لمراجعة ما يترجمون من كتب ، فقام ــ وهو يدير مدرسة الألسن ــ بمراجعة وتصحيح كتب مختلفة فى الطب والجغرافية والرياضيات ، نذكر منها على سبيل المثال :

ــ كتاب « نزهة المحافل فى معرفة المفاصل » الذى ترجمه محمد عبد الفتاح .
ــ كتاب « تحفة القلم فى أمراض القدم » للمترجم نفسه .
ــ كتاب « الدراسة الأولية فى الجغرافية الطبيعية » الذى ترجمه أحمد الرشيدى
ــ كتاب « الأقوال المرضية فى علم بنية الكرة الأرضية » الذى ترجمه أحمد فايد .

ب ــ تنظيم الوقائع المصرية

وفى هذه الفترة أيضاً ــ فى سنة ١٢٥٧ هـ ــ عهد إلى رفاعة فى تنظيم صحيفة الوقائع المصرية والإشراف على تحريرها ، فأحدث فيها تغييرات جمة ، وخطا بها وبتحريرها خطوات واسعات ، فى تلك السنة كونت لجنة برئاسة مدير المدارس للنظر فى إصلاح الوقائع ، وعهد إليها بوضع « خطة سديدة تضمن صدور الوقائع على الوجه الأكمل ، كما هو الحال فى الممالك الأخرى » ، ورأت اللجنة بعد اجتماعها : « أن الغرض من طبع الوقائع إنما هو لنشر الأخبار الحديثة على الناس حتى يستفيد منها كل إنسان ، ولا يجب الاكتفاء بنشر أخبار مصر فحسب ، وقد أصبح من اللازم إضافة بند للحوادث الخارجية فى الجريدة حتى يتقبلها الناس برغبة وشوق . . . وحيث أن نشر مثل هذه الأخبار يتوقف على قراءة الجرائد التى تنشر فى الخارج ، ويستوجب أن يكون الموظف المشرف على ترتيب الجريدة وتنظيمها ملما باللغتين ، وعلى ذلك فقد تقرر إحالة أعمال ترجمة

المواد المناسبة من الجرائد ، وعلاوة بعض قطع أدبية من الكتب الأدبية ، وانتخاب أخبار الملكية ، وترتيب الجريدة المصرية بصفة عامة على حضرة الشيخ رفاعى « كذا» أفندى ناظر مدرسة الألسن . . . إلخ » .

وقد قام رفاعة بهذا العمل الجديد خير قيام ، وطبع الوقائع فى عهد تحريره بطابع جديد ، مستعيناً فى هذا بخبرة طويلة وثقافة فرنسية وعربية واسعة .

وتبدو جهود رفاعة فى إصلاح الوقائع واضحة جلية فى الأعداد التى صدرت بعد توليه رئاسة تحريرها ؛ فقد عنى باللغة العربية ــ لغة البلاد ــ عناية خاصة ، وأصبحت هذه اللغة فى الناحية اليمنى تتصدر الجريدة فى صفحاتها الأربع ، وأخذت التركية مكان اليسار ، وانتقلت موضوعاتها فجأة من توافه الأخبار والحوادث والافتتاحيات الثقيلة المحشوة مديحاً وثناء للوالى بمبرر وبغير مبرر إلى موضوعات رئيسية لها خطرها ، لا فى الشرق وحده ، بل فى أوربا فى ذلك الوقت . . . »[1] .

قام رفاعة بهذه الجهود الشاقة خير قيام ، وبذل لها كل وقته وتفكيره وكان يدفعه إلى الإخلاص فى عمله والتفانى فى أداء واجبه وازع قوى من ضميره الحى ، وحب لوطنه وبنيه ، وتشجيع مستمر من الوالى ، ففى سنة ١٢٦٠ هـ أنعم على رفاعة برتبة القائمقام ، وفى سنة ١٢٦٣ هـ أنعم عليه برتبة أميرالاى لمناسبة انتهائه من ترجمة مجلد آخر من جغرافية « ملطبرون » ، وبهذا الإنعام الأخير أصبح يدعى رفاعة بك ، بعد أن كان يدعى فيما مضى بالشيخ رفاعة ، أو مسيو رفاعة (فى باريس) أو رفاعة أفندى .

---

(١) إبراهيم عبده : « تاريخ الوقائع المصرية » ، ص ٥١ ؛ ولتأكيد هذا القول انظر مثلا افتتاحية رفاعة للعدد ٦٢٣ من الوقائع المصرية بتاريخ غرة ربيع الآخر سنة ١٢٥٨ هـ بعنوان « تمهيد » ، فقد بدأها بتفسير القول المعروف : « الناس على دين ملوكهم » وذلك فى العصور المختلفة ، ثم ذكر أن الناس فى عصره كانوا يتحدثون دائماً عن الأخبار الداخلية والخارجية ، وهذا ما يسمى بالبوليتيقة ، والمتكلم فى شأن ذلك يقال له بوليتيقى ، فما كان بين الدول والملل يقال له بولوتيقة خارجية ، وما كان فى دولة واحدة مما يتعلق بانتظامها وتدبيرها يقال له بولوتيقة داخلية ، والغالب أن الغازيتات والوقائع هى التى تتكلم عن كل من البوليتيقة الداخلية والخارجية . . إلخ

٦ – رفاعة فى السودان

فى ١٣ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ ﻫ (١٠ نوفبر ١٨٤٨ م) توفى إبراهيم بن محمد على ، وفى ٢٧ من نفس الشهر تولى عرش مصر عباس الأول ، وكان محمد على لا يزال حيا يعانى من مرضه الأخير ، فلم يجرؤ عباس على تغيير ما يريد تغييره من الأوضاع القديمة، وفى ١٢ رمضان سنة ١٢٦٥ﻫ (٢ أغسطس ١٨٤٩م) توفى محمد على ، فاستقل عباس بالأمر .

ولم يكن عباس كجده وعمه ، بل لعله كان على النقيض منهما ، ولهذا يكاد يجمع مؤرخو عصره على وصفه بالجمود والرجعية ، فإذا فهمنا سياسة عباس الأول على هذا الأساس لم يكن من العسير إذن أن نفهم لم أقفلت معظم المدارس الخصوصية فى أول عهده ، وكانت مدرسة الألسن أول مدرسة ألغيت ، وذلك أن مؤسسها وناظرها – رفاعة الطهطاوى – كان من المقربين لمحمد على وإبراهيم الحائزين لثقتهما ، لهذا نشأ بين عباس ورفاعة نوع من الكراهية وسوء التفاهم .

لم يوضح رفاعه نفسه ، ولا وضح المؤرخون المعاصرون الأسباب الحقيقية لذلك النفور ، مما دعا المؤرخين المحدثين إلى أن يذهبوا فى تفسيره مذاهب شتى ، فالأستاذ عبد الرحمن الرافعى يرى أن لكتاب رفاعة تخليص الإبريز « سبباً يتصل بنفيه ، إذ لا يخفى أنه طبع للمرة الثانية سنة ١٢٦٥ ﻫ أى فى أوائل عهد عباس ، والكتاب . . . يحوى آراء ومبادئ لا يرغب فيها الحاكم المستبد ، وعباس باشا الأول كان فى طبعه مستبدا غشوماً ، فلا بد أن الوشاة قد لفتوا نظره إلى ما فى كتاب رفاعة بلك مما لا يروق عباس ، فرأى أن يبعده إلى الخرطوم ليكون السودان منفى له . . . »[1].

---

(١) عبد الرحمن الرافعى « عصر محمد على » ، ص ٤٨٩ – ٤٩٠ .

أما الدكتور عزت عبد الكريم فيرى أن هناك احتمالين لإبعاد رفاعة إلى السودان : أولهما سعى على مبارك : « الذى عاد من أوربا مليئاً بالأطماع ، والذى كان يحقد على رفاعة ما أصاب من مكانة ، وقد قرب عباس إليه على مبارك ، وأبعد رفاعة إلى السودان ، فلما خلفه سعيد قرب إليه رفاعة ، وأبعد على مبارك إلى القرم » ، والثانى « ما يحتمل أن يكون رفاعة قد لقيه من معارضة بعض المشايخ المتعصبين الذين ربما عدوه متطفلاً على ميدانهم فى دراسة الشريعة والفقه . . . »[1].

وهذه كلها تفسيرات احتمالية أو اجتهادية تفتقر إلى سند تاريخى مادى ، وأقربها إلى الواقع — فى نظرى — ما ذكره رفاعة نفسه من أنه سافر إلى السودان « بسعى بعض الأمراء بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم »[2] ؛ وإن كان لم يذكر أسماء هؤلاء الأمراء ، أو ماهية الوشاية التى وشوا بها ضده .

غير أنه عاد فأشار إليهم وإليها فى إيضاح مستتر فى قصيدة نظمها وهو فى السودان مستغيثاً مما هو فيه بحسن باشا — كتخدا مصر — قال فيها :

وما خِلْتُ العزيزَ يريد ذلى ولا يصغى لأخصامٍ لداد
لديه سعوْا بألسنةٍ حداد فكيف صغى لألسنة حداد ؟
مهازيلُ الفضائل خادعونى وهل فى حربهم يكبو جوادى ؟
وزخرف قولهم إذ موّهوه على تزييفه نادى المنادى
فهل من صيرفِ المعنى بصير صحيح الانتقاء والانتقاد
قياس مدارسى قالوا عقيمٌ بمصر ، فما النتيجة فى بعادى ؟[3] »

ويقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين : « وكان الشيخ ماكراً ، فقد وضع

---

(١) عزت عبد الكريم : المرجع السابق ، ص ٥٨ .
(٢) رفاعة : « مناهج الألباب المصرية » ، ص ٢٦٥ .
(٣) « المرجع السابق » ، ص ٢٦٨ .

القصيدة على وزن وقافية :

لقـــد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حيـــاة لمن تنادى»[١]

ومهما تكن الأسباب الحقيقية فإن عباساً قد أوعز فى شهر رجب سنة ١٢٦٦ إلى المجلس المخصوص برغبته ، واقترح هذا المجلس أن تؤسس مدرسة بالأقاليم السودانية إنقاذاً لأولاد أهلها والمستوطنين بها من حجيم الجهل ، وأن يقوم على تأسيسها ونظارتها رفاعة بك ، وأن يشترك معه فى التدريس علم من أعلام النهضة العلمية التعليمية فى ذلك العصر وهو محمد أفندى بيومى أستاذ الرياضيات فى المهندسخانة ، ورئيس أحد أقلام غرفة الترجمة ؛ وإنه من الجميل حقا أن نسجل لحكومة عباس أنها أول من فكرت فى إنشاء مدرسة مصرية فى ربوع السودان ، لو أنه كان خالص النية صادق الرغبة فى خدمة السودان وأبنائه ، ولكنه لم يكن كذلك ، وإلا فإن إنشاء مدرسة ابتدائية فى الخرطوم لم يكن يستلزم أن يشرف عليها ويقوم بالتدريس فيها كبير رجال النهضة العلمية فى مصر : رفاعة وبيومى .

قضى رفاعة فى السودان نحو ثلاث سنوات قاسى فيها الأمرين ، لا كرهاً فى السودان ، فهو القائل على لسان مصر والسودان :

نحن غصنان ضمنا عاطف الوجـ ـد جميعاً فى الحب ضم النطاق
فى جبين الزمان منك ومنى غرة كوكبية الانفلاق

إنما آلمه فى السودان شعوره بأنه منفى ، وتألمه لما أصاب معظم زملائه من مرض ووفاة ، وخاصة بيومى أفندى صديقه فى باريس ومصر ، ووفيه فى الجهاد العلمى ، وصاحبه فى السراء والضراء ، يؤيد هذا قوله فى قصيدته السابق الإشارة إليها :

وحسبى فتكها بنصيف صحبى كأن وظيفتى لبس الحـــداد

(١) أحمد أمين : «زعماء الإصلاح» .

ومع ذلك فقد تذرع هناك بالصبر والإيمان،وقام بواجبه فى مدرسة الخرطوم خير قيام ، وتخرج على يديه بعض أبناء مصر والسودان ، وقد بث شكواه فى قصائد كثيرة تعد من أجمل ما قال من شعر،ولم ينس أخيراً عمله الذى أحبه وأخلص له ، وهو الترجمة ، فشغل وقت فراغه بترجمة قصة « تليماك » التى طبعها أحد تلاميذه فيما بعد — فى بيروت — بعنوان : « مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك » ، وقد أشار فى مقدمتها إلى ما كان يحس — وهو فى منفاه — من ألم ممض ، وكيف استعان على تحمل هذا الألم باشتغاله بترجمة هذا الكتاب ، قال :

« وإنما فقط لما توجهت بالقضاء والقدر إلى بلاد السودان ، وليس فيما قضاه الله مفر ، أقمت برهة خامد الهمة ، جامد القريحة فى هذه الملمة ، حتى كاد يتلفنى سعير الإقليم الفائر بحره وسمومه ، ويبلعنى فيل السودان الكاسر بخرطومه . . . . فما تسليت إلا بتعريب « تليماك » ، وتقريب الرجاء بدور الأفلاك . . . إلخ » .

٧ — أمير الآلاى رفاعة بك
ناظر المدرسة الحربية بالقلعة فى عهد سعيد

فى ٢٠ شوال سنة ١٢٧٠ هـ (يوليو ١٨٥٤ م) تولى سعيد عرش مصر ، فأسرع رفاعة ورفاقه بالعودة إلى مصر ، وسرعان ما تكررت الرواية القديمة ، فكما أن عباساً —عند توليته — الحكم — قد أبعد رفاعة إلى السودان ، وقرب إليه على مبارك ، وعينه ناظراً لمدرسة المهندسخانة ، وعهد إليه بالإشراف على شئون التعليم، كذلك بدأ سعيد فأرسل على مبارك ليكون قائداً من قواد الحملة المصرية إلى القرم ، وقرب إليه رفاعة ، وحباه بعطفه .

بدأ رفاعة يرسم لنفسه الخطط ، ويعقد الآمال العريضة ، ونظم فى هذه الفترة القصائد الكثيرة يمدح بها سعيداً ، ويشيد بصفاته وعهده ، غير أن سعيداً لم يلبث أن أصدر أوامره فى ١٠ ربيع الأول سنة ١٢٧١ هـ بإلغاء ديوان المدارس وتصفية حساباته .

ومع هذا لم ييأس رفاعة ، فقد كان إلى جانبه فى ذلك العهد عظيم من العظماء وهو إبراهيم أدهم بك – ناظر ديوان المدارس – ، وكان هذا الرجل قد وضع فى أواخر عهد محمد على مشروعاً لنشر التعليم بين عامة أفراد الشعب المصرى ، وهو مشروع « مكاتب الملة » ، فلما تولى عباس الأول الحكم أبعد أدهم فيمن أبعد ؛ وفى عهد سعيد بدأ أدهم يعيد النظر فى مشروعه وأشرك معه رفاعة فى إعادة تنظيمه وتنقيحه ، ثم تقدم به إلى الوالى الجديد سعيد باشا ، واقترح كما يقول الدكتور عزت عبد الكريم « تعيين رفاعة بك ناظراً عامًّا على هذه المكاتب ، على أن يلحق به مترجمون لإتمام ترجمة كتاب « ملطبرون » الذى تمت ترجمة أجزاء منه فى عهد محمد على ، وغيره من الكتب الصالحة » .

ولكن يبدو أن سعيداً لم يؤمن بفائدة هذا المشروع ، كما أنه كان مشغولا – فى ذلك الحين – بأمور يراها أكثر أهمية من مشروع مكاتب الملة ، كقناة السويس ، وإصلاح الجيش ، وبناء القلعة السعيدية . . . إلخ .

ومرت الأيام والشهور ورفاعة ينتظر دون أن يعهد إليه بعمل ما ، فبدأ يحس بالضيق – مادياً ومعنوياً – ، وأخيراً قدم إلى الحكومة التماساً يرجو فيه أن يعين هو وتلميذه القديم خليفة محمود فى أى مصلحة من المصالح ، وأن يعهد إليهما فى ترجمة الكتب النافعة ، غير أن سعيداً كان كثير التنقل – ومعه فرق من جيشه – فى أنحاء مصر المختلفة ، فلم يجد الوقت الكافى للنظر فى هذا الاقتراح والبت فيه .

وكان سعيد شديد العناية بجيشه ، ولهذا عهد فى أوائل سنة ١٢٧٢ هـ (١٨٥٥ م) إلى سليمان باشا الفرنساوى بإنشاء مدرسة حربية جديدة لإعداد

ضباط يكونون أركان حرب للجيش ، وأنشأ سليمان المدرسة ، وألحق رفاعة وكيلا له ، وبعد قليل التمس سليمان إحالته على المعاش ، فعين رفاعة ناظراً للمدرسة .

قد يبدو هذا التعيين غريباً ، ولكن مسوغاته أن رفاعة كان يحمل لقب أمير الاى ، فقد كان الموظفون جميعاً — مدنيين وعسكريين — يمنحون الألقاب العسكرية فى ذلك العهد ، وبهذا أصبح رفاعة — الشيخ سابقاً والأميرالاى حاليا — ناظراً للمدرسة الحربية بالقلعة ، فماذا هو فاعل وثقافته دينية مذ كان يطلب العلم فى الأزهر ، أو مدنية مذ كان يطلب العلم فى باريس . . . ؟

لقد أتقن رفاعة اللغتين العربية والفرنسية ، وتخصص بفن الترجمة واشتغل بها ، ونشّأ جيلا من المترجمين هم خريجو مدرسة الألسن ،وكان يرجو أن يوفق — فى عهد سعيد — أن يعيد لمدرسة الألسن عهدها ، وأن يجمع تلاميذه حواليه فيستأنف نشاطه القديم ، ويترجم إلى العربية كنوز المعرفة الغربية وها هى الأقدار تنصبه ناظراً للمدرسة الحربية .

لم ييأس رفاعة ، بل رحب بالمركز الجديد ، فقد كانت له صلة قديمة بالمدارس الحربية منذ كان مترجماً بمدرسة الطوبجية بعيد عودته من باريس ، وبدأ يستعين بمن معه من رجال الجيش ، ولكنه سعى حتى صبغ المدرسة الجديدة بصبغة مدنية واضحة ، وأقحم الدراسات التى يتقنها ويميل إليها فى المنهاج إقحاماً ، فجعل دراسة اللغة العربية واجبة على الجميع ، وترك للتلاميذ حرية اختيار إحدى اللغتين الشرقيتين : الفارسية أو التركية ، وإحدى اللغات الأوربية : الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية .

ولقد كان رفاعة يقصد بهذه المحاولات أن يحيى عهد مدرسته القديمة الحبيبة إلى نفسه — الألسن — فإنه لم يلبث بعد هذه الخطوات الأولى أن أنشأ بالمدرسة الجديدة فرقة خاصة للمحاسبة ، ثم ألحق بها — بعد قليل — قلماً للترجمة اختار لرياسته تلميذه القديم الذى تخصص بترجمة الكتب الرياضية والحربية . السيد صالح مجدى بك .

قنع رفاعة بمركزه الجديدة ، واحتال كما رأينا حتى أضاف لمناهج الدراسة ما يرضى ميوله ورغباته ، ثم لم يلبث أن أقبل على العمل بنشاطه القديم الذى عرفناه ، فعهد إليه بنظارة مدرستى الهندسة الملكية والعمارة ، وتفتيش مصلحة الأبنية ، ثم رأى أن النهضة العلمية يجب ألا تعتمد على الترجمة وحدها ، بل يجب أن تعتمد أيضاً على إحياء المؤلفات القديمة ونشرها ، فسعى حتى صدرت الأوامر — كما يقول على مبارك — « بطبع جملة كتب عربية على طرف الحكومة وعم الانتفاع بها فى الأزهر وغيره ، منها : تفسير الفخر الرازى ، ومعاهد التنصيص وخزانة الأدب ، ومقامات الحريرى ، وغير ذلك من الكتب التى كانت عديمة الوجود فى ذلك الوقت . . . »

وبهذا يكون رفاعة أول واضع لعمادين من عمد النهضة الثقافية الحديثة ، وهما : الترجمة ، والنشر ؛ وسنرى فيما بعد أنه سيشارك أيضاً فى وضع العماد الثالث وهو التأليف .

فى أوائل سنة ١٢٧٨ هـ (أغسطس ١٨٦١ م) ألغيت هذه المدرسة الحربية — أى بعد خمس سنوات من إنشائها — وبعد أن بدأت تثمر وتؤتى أكلها ، وكانت قد ظهرت — كما يقول على مبارك — « نجابة تلامذتها ، واستفادتهم استفادة جيدة فى أقرب وقت » ؛ وهكذا أمسى رفاعة بلا عمل مرة أخرى ، وظل كذلك نحو السنتين .

٨ ـ رفاعة ناظر قلم الترجمة في عهد إسماعيل

فى ٧ مارس سنة ١٨٦١م فصل رفاعة من خدمة الحكومة بعد إلغاء المدرسة الحربية بالقلعة ، وظل كذلك إلى أن ولى العرش إسماعيل ، فبدأت تتجه إليه الأنظار من جديد .

كان إسماعيل يرمى – من يوم أن تولى الحكم – إلى إصلاح القضاء فى مصر ليفل من حدة الأجانب ، فبدأ يعد العدة لهذا الإصلاح بوضع المشروعات لترجمة القوانين الفرنسية ، وإعداد المصريين الذين يصلحون لتولى مناصب القضاء الجديد ، فلترجمة القوانين أنشىء قلم الترجمة الجديد ، ولإعداد القضاة أنشئت مدرسة الألسن الجديدة .

أنشىء قلم الترجمة الجديد فى أوائل عهد إسماعيل ، وعين رفاعة بك ناظراً له ، فاختار معاونيه فى العمل جماعة من تلاميذه القدماء خريجى مدرسة الألسن القديمة ، هم : عبد الله السيد ، وصالح مجدى ، ومحمد قدرى ، ومحمد لاظ ، وعبد الله أبو السعود ، واستقر هذا القلم فى غرفة من غرف ديوان المدارس ، وبدأوا بالقانون الفرنسى واشتركوا جميعاً فى ترجمته بإشراف رفاعة ، وطبعت هذه الترجمة فى مجلدات كثيرة فى مطبعة بولاق بين سنتى ١٢٨٣ و ١٢٨٥ هـ .

كان هوا هو العمل الأساسى لقلم الترجمة الجديد ، ولهذا لا نجد له أثراً آخر غير هذا الأثر القانونى ، ولهذا أيضاً نلاحظ أن هذا القلم خضع لتطورات كثيرة ، فكانت الأوامر تصدر تباعاً بنقل مترجميه إلى أعمال أخرى ، وكان رفاعة يحس بأثر هذه التصرفات الغريبة فيتألم ويشكو ؛ وفى نفس الوقت كان العمل يزداد بالقلم ، فقد كان المترجمون يعملون على ترجمة القوانين الفرنسية ،

والدستور العثمانى ، والجريدة العسكرية ، وحسابات البعثة المصرية بباريس ، كما كان أحد مترجميه يقوم بترجمة كتاب رفاعة فى تاريخ مصر إلى اللغة التركية .

كان يقوم بهذا الجهد الشاق خمسة من المترجمين — غير رفاعة بك — ثم طلب إليه أن يعمل على إتمام الأجزاء التى لم تترجم من جغرافية ملطبرون ، وكان من المنتظر أن يرحب رفاعة بهذا الطلب ، ولكنه ضاق به وضج بالشكوى ، وأرسل يعتذر لأن القلم لم يبق به غير ثلاثة من المترجمين ، هم : أبو السعود ، وصالح مجدي ، وحسن الجبيلى .

وهناك أسباب كثيرة أدت إلى إضعاف هذا القلم — رغم ما كان يعقده عليه رفاعة من آمال — ، وأهمها فيما نرى سببان :

أولهما أن الغرض الأساسى الذى دفع الحكومة لإنشائه كان هو ترجمة القوانين الفرنسية ، فلما تمت ترجمة هذه القوانين قلت عناية الحكومة بالقلم .

وثانيهما — ولعله أهم السببين وأقواهما — يتلخص فى أن قلم الترجمة الجديد لم تقم إلى جانبه المدرسة التى تمده بالمترجمين الصالحين كما كان الحال فى عهد محمد على ، نعم لقد أنشئت فى عهد إسماعيل مدرسة للألسن ، ولكنها كانت تختلف اختلافاً كبيراً عن سابقتها فى عهد محمد على .

أنشىء قلم الترجمة فى عهد إسماعيل فى سنة ١٨٦٣ ، ولم تنشأ مدرسة الألسن إلا فى سنة ١٨٦٨ ، وقد سميت المدرسة الجديدة باسم مدرسة الإدارة والألسن ، وكانت برامجها ترمى إلى العناية بدراسة القوانين وإعداد القضاة ورجال القانون لا لإعداد المترجمين ، ولهذا لم تلبث أن تطورت هذه المدرسة حتى أصبحت « مدرسة الحقوق » ، ولهذا أيضاً بدأت الحكومة تحس بحاجتها إلى مدرسة خاصة لتخريج المترجمين فأنشأت هذه المدرسة باسم « مدرسة الألسن » ولكن فى سنة ١٨٧٨ ، أى فى أواخر عهد إسماعيل ، وبعد وفاة رفاعة بنحو خمس سنوات وهذه المدرسة هى التى ستتحول مع الزمان فتصبح مدرسة للمعلمين .

٩ ــ صورته الجسمانية والنفسية

وصف صالح مجدى أستاذه رفاعة بأنه كان « قصير القامة ، عظيماً ، واسع الجبين ، متناسب الأعضاء ، أسمر اللون ، ثابت الكون ، وكان فيه دهاء ، وحزم ، وجرأة وثبات وعزم ، وإقدام ورياسة ، ووقوف تام على أحوال السياسة ، وتفرس فى الأمور ، وكان حميد السيرة ، حسن السريرة » ، ثم قال : « وكان فيه زيادة كرم وسماحة ، وفريد بلاغة وفصاحة ، كثير التواضع ، جم الأدب ، محبا للخير ، وكان كلما ارتقى إلى أسنى المناصب ، وجلس على أسمى المراتب ، ازداد تواضعه للرفيع والوضيع ، وتضاعف سعيه فى قضاء حوائج الجميع ، ولم يغتر بزينة الدنيا وزخرفها ، وكان قليل النوم ، كثير الانهماك فى التأليف والتراجم ، حتى إنه ما كان يعتنى بملابسه . . . »

هذه صورة تقريبية لرفاعة ، هى أقرب الصور للحقيقة ، فراسمها تلميذ رفاعة وأقرب الناس إليه وأكثرهم تعاوناً معه؛ وهى إلى هذا صورة صادقة للعالم الحق الذى عاش ومات للعلم وفى سبيل العلم ، والذى أكسبه العلم صفات العلماء الطيبة ، وخاصة التواضع وحب الخير ، والبعد عن زخرف الدنيا وزينتها .

الفصل الثالث

جوانبُ رفاعة الطهطاوى

١ـ رفاعة الطهطاوى المصلح

ا ـ إصلاحات فى التعليم

يقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين : «كان من العادات الظريفة التى اندثرت أن يجتمع الجم الغفير من العلماء والأمراء والأغنياء والتجار فى ليلة من ليالى رمضان فى بيت السادات فى « بركة الفيل » ، ويجلس الشريف الحسيب النسيب شيخ السادات مجلسه الفخم الوقور يمنح الرتب والألقاب لمن شاء من الزوار ، ولكن ليست رتبة « باك » ولا « باشا » ولا نحو ذلك ، إنما هى ألقاب وكنى يستمدها من الوحى الصوفى ، والإلهام اللدنى ، فهذا أبو الأنوار ، وهذا أبو الوفاء ، وهذا أبو البركات ، وهذا أبو الخير ؛ ففى ليلة من هذه الليالى الرمضانية كان من الزوار شيخنا الشيخ رفاعة ، فتفرس فيه شيخ السادات ، ونظر إليه بقلبه ، ثم قال له : « اذهب فأنت أبو العزم ، وكذلك كان ، وكانت كنيته موفقة ، فأبرز صفات الشيخ رفاعة عزمه ».

أجل ، فقد كانت أبرز صفات رفاعة عزمه ، وعزمه القوى الذى لا يكل ولا يفلّ ، وقد لاحظنا كيف كان الرجل دائب العمل جم النشاط فى كل أدوار حياته ، وقد ظلت هذه الصفة تلازمه حتى آخر سنى حياته ، فنلاحظ أنه لم يقنع بعمله فى قلم الترجمة رغم كثرته ، فامتد نشاطه إلى ميادين أخرى كثيرة ، تتصل كلها بالتعليم وإصلاحه ، وبالتأليف والترجمة .

فى هذا العهد ، عين رفاعة عضواً دائماً فى « قومسيون المدارس » وهو المجلس الذى كان ينظر فى السياسة العليا للتعليم ، ويضع النظم والقوانين والبرامج للمدارس ، وكان رفاعة العضو الدائم الوحيد بهذا «القومسيون » ، أما بقية الأعضاء فهم نظار المدارس العليا ، وكانوا يتغيرون بين الحين والحين ، كما أنهم كانوا يستدعون كلما اقتضت الضرورة استدعاءهم .

وقد كان لرفاعة جهد مشكور فى تنظيم تدريس اللغة العربية ، ومحاولات طيبة لإصلاح هذا التدريس ، فكان يمتحن الشيوخ والفقهاء كل عام ليتخير من بينهم الأكفياء الصالحين لوظائف التدريس .

وكان يزور المدارس للتفتيش على هؤلاء المدرسين واختبار كفايتهم ، ثم يترك لهم قبل مغادرة المدرسة التقارير الصالحة وفيها بيان إرشادى لخير الوسائل الممكن اتباعها لتدريس اللغة العربية مع مراعاة الظروف المختلفة كنوع المدرسة وسن التلاميذ ومدة الدرس . . . إلخ .

ولاحظ رفاعة — بعد هذه الجولات التفتيشية ، أن الكتب التى بين أيدى التلاميذ كتب غير صالحة ، فبدأ يضع بنفسه كتباً جديدة هى الخطوة الأولى بحق فى سبيل النهضة بالكتب المدرسية فى تاريخنا التعليمى ، وكان رفاعة يسترشد فى عمله الجديد بما رأى وما درس من كتب فرنسية فى أثناء تلقيه العلم فى فرنسا .

بدأ رفاعة بكتب النحو ، فلاحظ أن الكتب الأزهرية القديمة التى يستعملها التلاميذ كتب عقيمة لم تعد تصلح للعصر الحديث ، فوضع كتاباً جديداً أسماه « التحفة المكتبية فى القواعد والأحكام والأصول النحوية ، بطريقة مرضية » ، حاول فيه تبسيط القواعد النحوية ، وجعله فى شكل جداول مختلفة ليسهل على الطلبة فهمها وحفظها .

ولاحظ رفاعة أيضاً أنه لا يوجد بين أيدى التلاميذ كتب للمطالعة مع فائدتها التى لا تنكر فى تزويد الأولاد بالمعارف العامة ، فوضع كتابه الطريف

« مباهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية » ليسدّ به هذا النقص ، وحاول فيه — لأول مرة — أن يبث فى نفوس النشء معنى الوطن والوطنية ، فهو يتحدث فيه حديثاً مفصلا عن « المنافع العامة ؛» وينقل فى حديثه الشواهد من الشرق والغرب ، تسعفه فى ذلك ثقافته الإسلامية والفرنسية ، ويختم الكتاب بفصل عما يجب « للوطن الشريف على أبنائه من الأمور المستحسنة » .

ب — تعليم المرأة

ويعتبر رفاعة — بحق — أول داعية لتعليم المرأة فى مصر — بل فى الشرق كله — ، فقد ذكر يعقوب أرتين فى كتابه عن التعليم العام فى مصر أن لجنة تنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦ اقترحت العمل لتعليم البنات فى مصر ، وقد كان رفاعة عضواً من أعضاء تلك اللجنة ، غير أن هذا الاقتراح لم ينفذ ، لأن المجتمع المصرى لم يكن على استعداد وقتذاك لقبول هذه الفكرة ، واكتفى بإنشاء مدرسة المولدات والقابلات .

وتجددت الفكرة بعد ذلك ، وكان رفاعة من أكبر الداعين لها ، ففى سنة ١٨٧٣ أنشئت أول مدرسة لتعليم البنات فى مصر ، أنشأتها « جشم آفت هانم » وقبل إنشاء المدرسة بسنة واحدة أخرج رفاعة كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » ، وفيه يدعو للفكرة ويمهد لظهورها فيقول : « ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معاً لحسن معاشرة الأزواج ، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فإن هذا مما يزيدهن أدباً وعقلا ، ويجعلهن بالمعارف أهلا ، ويصلحهن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى . . . إلخ ».

هذا ملخص الدعاية الجريئة التى بثها رفاعة لتعليم البنت ،وذلك قبل قاسم أمين بثلاثين عاماً ونيف .

٢ ـ رفاعة الطهطاوى المؤلف والصحفى

ومن هذه الجهود السابقة نلمح كيف خطا رفاعة الخطوة الثانية فبدأ ـ إلى جانب الترجمة ـ يؤلف ويصنف ، بل إن جهوده فى التأليف تفوق جهوده فى الترجمة ، ولم يقصر جهوده فى هذا الميدان على الكتب المدرسية والتعليمية وحسب ، بل وضع مشروعاً لإخراج مؤلف كبير فى تاريخ مصر من أقدم العصور إلى عهده ، ولكنه لم يخرج منه إلا الجزء الأول وعنوانه « أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل » ، وقد تناول فيه الكلام عن تاريخ مصر القديم وتاريخ العرب قبل الإسلام ؛ ويقول تلميذه ومؤرخ حياته صالح مجدى إنه أتم الجزء الثانى ، ولكننا لم نعثر عليه .

وفى هذا العهد أيضاً أخرج رفاعة مؤلفاً تاريخياً آخر عن سيرة الرسول ـ عليه السلام ـ ، وعنوانه : « نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز » وكان قد نشره فصولا فى مجلة « روضة المدارس » .

وفى غمرة هذا النشاط فكر على مبارك فى إصدار مجلة علمية تكتب فيها الأبحاث باللغة العربية ، ولم يلبث أن أخرج فكرته إلى حيز التنفيذ ، وعهد برئاسة تحرير المجلة إلى رفاعة يعاونه ابنه على فهمى رفاعة مدرس الإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن وقتذاك .

تلك هى « روضة المدارس » أول مجلة مصرية ، وقد صدر العدد الأول منها فى ١٥ المحرم سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) أى قبل وفاة رفاعة بثلاث سنوات ، وقد اشترك فى تحرير أعدادها المختلفة نخبة طيبة من أعلام المصريين فى القرن الماضى أشهرهم : على مبارك ، وعبد الله فكرى ، والشيخ حسين المرصفى ، ومحمد قدرى ، ومحمود الفلكى ، وإسماعيل الفلكى ، والمسيو بروكش ـ ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم ـ ، وأحمد ندا العالم النباتى الكبير ، وصالح مجدى ، وعبد الله

أبو السعود ، والشيخ حسونة النواوى ، والشيخ عبد الهادى نجا الإبيارى ، والشيخ حمزة فتح الله . . . إلخ .

وكانت موضوعاتها متنوعة تتناول النواحى والدراسات الأدبية والعلمية والفقهية والاجتماعية والتاريخية ، كما كانت تنشر بها بعض المقطوعات الشعرية ، وخاصة « للشاب النجيب إسماعيل أفندى صبرى أحد تلامذة مدرسة الإدارة » .

وظل رفاعة يتولى رئاسة تحرير الروضة إلى أن مات فتولاها من بعده ابنه على بك فهمى .

٣ ـ رفاعة الرجل

قاسى رفاعة كثيراً فى حياته ، وخاصة فى السنوات التى قضاها فى السودان ، ومع هذا فقد احتمل الألم فى قوة وصبر ، شأن العظماء من الرجال .

كانت سياسة مصر وحكومتها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر تهدف إلى نقل علوم الغرب ونظمه الجديدة مع الاحتفاظ لمصر بطابعها الشرقى ، وكان رفاعة خير نموذج للرجل الذى يمثل هذه السياسة ويعمل لتحقيقها ، فهو قد قبس قبسين : قبساً من علم الشرق ، وقبساً من علم الغرب .

وقد أخذ رفاعة تلاميذه بهذه السياسة ، فخرجوا ــ فى جملتهم ــ صوراً منه ، يتقنون اللغة العربية وعلومها ، واللغات الأجنبية وعلومها .

كان أصحاب رفاعة يسمونه « الشيخ رفاعة » ، فلما سافر إلى باريس كان أصدقاؤه من الفرنسيين والمستشرقين ينادونه « المسيو رفاعة » ، ولما عاد إلى مصر وعين فى المدارس الجديدة سمته الحكومة « رفاعة أفندى » ، ولكنه رقى بعد ذلك إلى رتبة القائمقام فأصبح لقبه « رفاعة بك » ، وقد رقى رفاعة ــ منذ عاد من باريس ــ فى سلم الرتب العسكرية من الملازم الثانى إلى أمير الآلاى .

كان رفاعة دائم العمل ، دائب النشاط ، واسع العلم ، وافر الذكاء ، كثير الإنتاج ، ومع هذا لم يمنح فى حياته لقب « الباشوية » ، ولم يصل كغيره إلى مرتبة « النظارة » وهذا أمر يبدو غريباً ، ولكن الأستاذ عبد الرحمن الرافعى يعلله بما كان يمتاز به رفاعة من شمم وإباء وشهامة ، فهو يقول : « ولا يمكن تعليل كل ذلك من ناحية الكفاءة والجدارة ، فإن كفاءة رفاعة بك كانت منقطعة النظير ، وجدارته معترف بها من الجميع ، فبقاؤه فى « نظارة قلم الترجمة » وعدم بلوغه مرتبة الوزارة ، وهى النهاية التى يتطلع إليها من ينتظمون فى سلك المناصب الحكومية لا بد أن يكون ذلك راجعاً إلى ما اتصف به رفاعة بك من الشمم والإباء ، فإن هذه الصفات على كونها من أسمى الفضائل ليست محببة إلى الرؤساء وولاة الأمر ، ولا ترغبهم كثيراً فى أصحابها ، ولا تميل إلى إسناد المناصب الرفيعة إليهم » .

٤ ــ رفاعة الوطنى

وهناك صفة هامة من صفات رفاعة تستحق الالتفات والتسجيل ، فقد كان فيها الرائد الأول للمصريين جميعاً فى العصر الحديث ، تلك هى عاطفته الوطنية القوية ، كان رفاعة يحب مصر حباً قوياً ملك عليه نفسه ، وكان الدافع له إلى الإخلاص فى عمله والتفانى فى أداء واجبه ، وقد تغنى بهذا الحب كثيراً فى شعره ، بل نحن لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن معظم شعره قصائد ومقطوعات وأناشيد وطنية .

وفى كتبه المختلفة كان يعقد الفصول الطوال للتحدث عن الوطن والوطنية ، وتحليل هذا المعنى وضرب الأمثلة بمن عاشوا وضحوا فى سبيل أوطانهم ، أثار هذه العاطفة فى نفسه طبيعته الخيرة ، وقوتها ثقافته الواسعة فى باريس ، ودراسته

للعلوم الفلسفية والاجتماعية والسياسية هناك ، وأذكاها أيضاً أنه شاهد ثورة الشعب الفرنسي في سنة ١٨٣٠ ،فقد رأى بعينه كيف يبذل الفرنسيون أرواحهم في سبيل وطنهم وحريتهم ، ونماها أخيراً حركة الإحياء التي عاصرها رفاعة والتي كانت ترمى إلى النهضة بمصر حربياً وثقافياً واقتصادياً .

وشعر رفاعة لا يرفعه إلى مرتبة الشعراء الممتازين كشوقي ومدرسته ، ولكنه يفضل كثيراً شعر معاصريه ، فقد ارتفع بشعره عن الأغراض المتداولة في أيامه — كالمديح والرثاء وتأريخ المنشآت والغزل . . . إلخ — إلى أغراضه السامية من التغنى بحب مصر ، والإشادة بذكرها وذكر جيشها المجيد ، ومواقعه الحاسمة ، وأبطاله الصناديد . . . إلخ . وشعر رفاعة مبعثر — حتى الآن — في كتبه المؤلفة والمترجمة ، ويحتاج — في رأيي — إلى من يجمعه في ديوان خاص ويعنى بدراسته وتقديمه إلى القراء .

* * *

وبعد فهذه لمحة عن رفاعة الرجل ، بل البطل ، قضى حياته في العمل ، والعمل النافع ، وظل على نشاطه ودأبه على الإنتاج حتى أوفى على الخامسة والسبعين فنالت منه الشيخوخة ونال منه المرض ، فأصيب بالتهاب في المثانة ، ولبث يعالج منه مدة حتى حان الحين ووافى الأجل المحتوم، فأسلم الروح إلى بارئها ، وكان ذلك في أول ربيع الثاني سنة ١٢٩٠ هـ (٢٩ مايو سنة ١٨٧٢ م) فاهتزت مصر كلها لموته ، ونشر ابنه على بك فهمي رفاعة نعيه في العدد السابع من السنة الرابعة من مجلة « روضة المدارس » ، ولست أجد أخيراً وصفاً لجنازته وما أصاب الناس من ألم لوفاته خيراً من قول المرحوم الأستاذ أحمد أمين ، قال :

« . . اهتزت مصر لموته (أي رفاعة) ، واحتشد لتشييع جنازته الألوف المؤلفة من رجال المعارف والأمراء والنبلاء وتلاميذ المدارس ، وازدحمت الشوارع بالناس يردون بعض جميله : يذكره الأزهريون على أنه ابنهم ، والمتعلمون المدنيون

على أنه أبوهم ، والجالية الفرنسية على أنه أخوهم ، والمصريون كلهم على أنه مؤسس نهضتهم ؛ وكلهم يتوجع لفقده ، ويشيد بذكره ، وسار المشهد من منزله بالمهمشا حتى إذا قارب المدينة كان ينتظره شيخ الأزهر وعلماؤه وطلبته ، فاشتركوا فى تشييع الجنازة ، ووضع النعش فى القبلة الجديدة ، ولا يكون ذلك إلا لعظيم ، وأخذ الأفاضل فى رثائه بالقصائد والخطب ، ثم حمل إلى « بستان العلماء » حيث طويت صحيفته ، وبقيت آثاره خالدة تعظم وتتزايد وتتوالد ، رحمه الله فقد صنع لأمته كثيراً . . . » .

أجل ، رحم الله رفاعة رحمة واسعة ، فقد صنع لأمته كثيراً . . .

الفصل الرابع

منتخبات من آثار رفاعة الطهطاوى

١ ـ رفاعة الناثر

١ ـ وطنياته

ا ـ حب الوطن (مصر)

كان رفاعة الرائد الأول فى هذا الميدان ، فهو أول من كتب – نثراً وشعراً – فى معنى الوطن والوطنية وحب الوطن فى العصر الحديث ، وأفكاره التى تدور حول هذه الموضوعات ، والتى تنادى بالاعتداد بوطنه مصر والإشادة بأمجاده تجدها منتثرة فى فصول كتبه المؤلفة والمترجمة ، وفى مقالاته الصحفية فى « الوقائع الرسمية » و « روضة المدارس » ، وفى مقطوعاته الشعرية المختلفة .

إرادةُ التمدّن للوطن لا تنشأ إلا عن حبّه من أهل الفِطَن ، كما رَغَّبَ فيه الشّارع[1] ، ففى الحديث : « حبُّ الوطن من الإيمان » ؛ وقال أميرُ المؤمنين عُمَرُ بن الخطّاب — رضِيَ الله عنه — : « عَمَّرَ اللهُ البلادَ بحبِّ الأوطان » ؛ وقال علىٌّ — كرّم الله وجهَه — : « سعادةُ المرءِ أن يكونَ رزقُه فى بلدِه » ؛ وقال بعضُ الحكماء : « لولا حبُّ الوطن لما عُمِّرت البلادُ غيرُ المخصبة » ؛ وقال الأصمعىّ : « دخلتُ البادية ، فنزلتُ على بعضِ الأعراب ، فقلتُ له : أفِدْنى ، فقال : إذا أردتَ أن تعرفَ وفاء الرّجل ، وحُسنَ عهده ، ومكارمَ أخلاقِه ، وطهارَةَ مولدِه ، فانْظُرْ إلى حنينِهِ لأوطانه ، وشَوقِهِ إلى إخوانِه » ، قال الشاعر :

---

(١) الشارع : واضع الشريعة .

وحَبَّبَ أوطانَ الرِّجال إليهمُ مآربُ[1] قضَّاها الشَّبابُ هنالكا
إذا ذُكِرَتْ أوطانُهُمْ ذكرتْ لهمْ عهودُ الصِّبا فيها ، فحنُّوا لذلكا
ولى موطِنٌ آليْتُ ألَّا أبيعَهُ وألا أرَى غيرِى له الدَّهْرَ مالِكا

وقال آخر :

بلدٌ صحبتُ به الشَّبيبةَ والصِّبا ولبستُ ثوبَ العيشِ وهو جديدُ
فإذا تمثَّلَ فى الضَّميرِ رأيتُهُ وعليه أغصانُ الشَّبابِ تَمِيدُ[2]

فالوطنُ محبُوبٌ ، والمنشأ مألوفٌ ، حتَّى لغيرِ المتمدِّن ، بل يقال : إنَّ البادى[3] الجبلىَّ متعلِّق بحبالِ جبالِ أوطانه ، ويعلقُ بأذيالِ باديتِهِ ، ولا يعلقُ الحاضر بمدينتِه وحاضرتِه ، بحيث لا ينتقِل الجِلْف[4] من باديتِهِ إلاَّ للانتجاع فى الفلَوات ، ويرى عزَّهُ فى الصحارى التى ألف طبعُه سُكْنَى خيامِها ، وتربَّض عقلُه عليها واعتاد ، كما يدُلُّ لذلك ما حُكى عن مَيْسُون بنتِ بَحْدَل : أنها لما اتَّصَلت بمعاوية رضى الله عنه . ونقلها من البدوِ إلى الشام كانت تُكْثِر الحنينَ إلى ناسِها ، والتذكّر بمسقطِ رأسِها ، فسمعها ذاتَ يومٍ وهى تنشد :

لَبَيْتٌ تخفقُ الأرواحُ فيه أَحَبُّ إلىَّ من قصرٍ مُنيفِ[5]
وأكلُ كُسَيْرَةٍ من كِسْرِ بيتى أَحَبُّ إلىَّ من أكلِ الرَّغيفِ

---

(١) مآرب : جمع مأرب ، الحاجة .
(٢) تميد : تميل .
(٣) البادى : ساكن البادية أى الصحراء .
(٤) الجلف – والجمع أجلاف – : الأعرابى الجافى فى خلقه وخلقه ، سمى كذلك لأن جوفه هواء لا عقل فيه .
(٥) أناف الشىء على غيره ارتفع وأشرف ، ويقال لكل مشرف على غيره إنه لمنيف .

وأصواتُ الرِّياحِ بكل فجٍّ　　أحَبُّ إلىَّ من نَقْرِ الدُّفوفِ
ولُبْسُ عباءةٍ وتقرّ عينى　　أحَبُّ إلىَّ من لُبْس الشُّفوفِ(١)
وكلبٌ ينبحُ الطرّاقَ حولى　　أحَب إلىَّ من قِطٍّ ألوفِ
وبِكْرٌ(٢) يتبعُ الأظعانَ(٣) صعبٌ　　أحَبُّ إلىَّ من بغلٍ زفُوفِ(٤)
وخِرقٌ(٥) من بنى عَمِّى نحيفٌ　　أحَبُّ إلىَّ من عِلجٍ(٦) عَنِيف

فلمَّا سمع معاوية الأبيات قال : مارضيتْ ابنةُ بحْدَل حتى جعلتنِي علجاً من علوج العجم » .

فالعربىُّ كثيرُ التعلق بباديته ، فلا يتمدّح إلا بها ، بخلاف المتمدِّن فإنه يكثر التنقُّل ، ولـكن فى الحقيقة تنقُّلهُ ثمرةٌ من ثمرات التمدُّن مرتفعة ، تعودُ على الوطن بالمنفعة .

ويكفى حبّ الوطن أن كراهةَ الإجلاء منه مقرونةٌ بكراهة قتل الإنسان نفسه فى قوله تعالى: « ولَوْ أنَّا كَتبْنَا عَلَيْهِمْ أنْ اقْتلُوا أنْفُسَكُمْ أوْ اخْرُجُوا من دِيارِكُمْ ما فَعَلُوه(٧) »

وحَسْبُ المؤمنِ بحبّ الوطن أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين خرج من مكة علا مطيَّتَه ، واستقبل الـكعْبَةَ ، وقال :« والله ، لأعلمُ أنك أحبُّ بلَدِ

(١) الشِّف والشَّف : الثوب الرقيق يرى ما وراءه ، والجمع شفوف .
(٢) البكر : ولد الناقة أو الفتى من الإبل .
(٣) الظعينة : الجمل الذى يركب أو الراحلة التى يرحل عليها والجمع أظعان .
(٤) الزفيف : سرعة المشى مع تقارب خطو وسكون .
(٥) الخرق من الفتيان : الظريف فى سماحة ونجدة ، وقيل هو الكريم السخى .
(٦) العلج : الرجل الضخم من كفار العجم ، وبعض العرب يطلق العلج على الكافر مطلقاً .
(٧) الآية ٦٦ (م) ، السورة ٤ (النساء) .

الله إلىّ ، وأنك أحبُّ أرضِ الله إلى الله تعالى — عزَّ وجلّ — وأنكِ خيرُ بقعةٍ على وجه الأرض وأحبُّها إلى الله تعالى ، ولولا أن أهلَك أخرجونى منك لما خرجتُ » .

وبالجملة فحبُّ الأوطان — على عِظَمِ الحسَبِ وكرم الأدب — أبهَى عنوان، وهو فضيلةٌ جليلة ، لا يؤدِّى حقَّ الوفاء بها إلا من حازَ الشمائل النبيلة ، ولا تعين عليها إلا الهممُ العَلِيَّة والعزائم الملوكية ، التى تقلِّدُ أعناق الأمّة حلى المنّةِ والنّعمة ، فتبعثُهم على التشبُّثِ بالأوطان ، والتعلّق بأذيالِ الإخوان ، لا سيّما إذا كان الموطنُ منبتَ العزِّ والسعادة والفخار والمجد كديارِ مصر ، فهى أعزُّ الأوطان لبنيها ، ومستحقّة لِبرِّها منهم بالسّعْى لبلوغ أمانيها ، بتحسين الأخلاقِ والآداب ، من جهتين عظيمتين :

الأولى : أنّها أمٌّ لساكنيها ، وبِرُّ الوالدين واجبٌ — عقلاً وشرعاً — على كل إنسان .

والثانية : أنّها ودودٌ بارّةٌ بهم ، مثمرةٌ للخيراتِ ، منتجةٌ للمبرّات ، فبِرُّها يعودُ على أبنائها ثمرتُه ، وترجِعُ إليهم فائدتُه ، ويحسن الصّنيع بتضاعُفِ الفوائدِ العوائد أضعافاً مُضاعَفة ، وكلّما تحسّنت جهاتُ البِرِّ من أهاليها حسنت أيضاً الثمراتُ لطالبيها ، فإذا كانت لا تُحرم من ثمرات مصر الأجانبُ ، فبالأحرى أن تتمتع بها الأقاربُ ؛ ففى الأثر : «من أعْيَتْهُ المكاسبُ فعليه بمصر، وعليه بالجانب الغربى منها » .

وروى أيضاً :

« قُسمت البَرَكةُ عشرةَ أجزاء ، تسعةٌ فى مصر ، وجزءٌ فى الأمصار كلّها ، ولا يزالُ فى مصر بركةُ مافى الأرضين كلّها » .

وقال عبد الله بن عمر :

« أهلُ مِصْرَ أكرَمُ الأعاجِم كلّها ، وأسمحُهم يداً ، وأفضلُهم عنصرًا ، وأقربُهم رَحِماً بالعرب عامّة ، وبقريش خاصة » .

يشيرُ بهذا إلى هاجر أم إسماعيل — عليه السلام — ، فإنها من قرية أمّ دينار أو قرية أمّ دنين (١) ، وكلاهما بمصر ، ويقال إنّها من بلدةٍ بقرب الفرما (٢) ؛ وإلى مارية أم إبراهيم ، فإنها من قريةٍ بصعيدها من إقليم الجيزة .

وروى عن عمر — أمير المؤمنين رضى الله عنه — أنه سمع رسول الله — صلّى الله عليه وسلم — يقول : « إن الله — عزّ وجلّ — سيفتحُ عليكم بعدِى مصر ، فاستوصوا بقِبطِها خيراً ، فإن لهم منكم صهراً وذمّة » .

فمصرُ هى بلدُ العِلْم والحكمة من قديم الدّهر وحديثه ، ومنها خرج العلماء والحكماء الذين عمَّروا ممالكَ الدنيا بتدبيرهم وحكمتِهم وفنونِهم وصنائعهم ، ولم تزلْ إلى الآن يسيرُ إليها طلبة العلم وأصحابُ الفهم من سائر الأقطار لتحصيل درجة

(١) أم دنين : قرية مصرية قديمة كانت تطل على النيل وتقوم حيث تقوم حديقة الأزبكية الآن فى مدينة القاهرة .

(٢) كانت الفرما إحدى ثغور مصر الحصينة الشمالية على البحر الأبيض المتوسط ، وكانت لها فى العصور الوسطى الإسلامية أهمية خاصة من الناحيتين الحربية والتجارية ، وفى سنة ٥٤٥ هـ نزل الفرنج بالفرما ونهبوها وأحرقوها ، وفى سنة ٥٥٩ أكمل حرقها الوزير الفاطمى شاور فلم تقم لها قائمة بعد ذلك ، وأطلالها الآن موجودة شرقى محطة الطينة على بعد ٢٥ كيلومتراً منها .

الكمال ، وكفاها فخراً أنها تسمى خزائن الأرض » كما حكاه الله تعالى عن يوسف — عليه السلام — فى قوله لملكِ مصر : « اجْعَلنى على خَزَائن الأرْض إنِّى حَفِيظٌ عَليم »[١] .

ومِمَّا يدُلُّ أيضاً على أنها كانت بمكانة من التمدين فى قديم الأزمان قوله تعالى مخبراً عن موسى — عليه السلام — أنه قال : « رَبَّنَا إنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَونَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فى الحياةِ الدُّنيا »[٢]؛ وكذا قوله تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال: «أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وهٰذهِ الأنهار تجرى مِنْ تحتى أفَلاَ تُبْصِرُون[٣] ».

قال بعض المفسرين ، ولم يكن فى الأرض مُلْكٌ أعظمَ من مُلْك مصر ، وكان جميع الأرضِين يحتاجون إلى مصر ، وأما الأنهار فكانت قناطرَ وجسوراً بتقدير وتدبير حتى أن الماء يجرى من تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاءوا .

وهذا عينُ التمدُّن إذ لا يكون ذلك إلا بتقدّم الصنائع والفنون ، ويؤيده بقايا الآثار المشاهدة التى لا كان مثلها فى غير مصر ولا يكون ، مع ما امَّحَى منها بشهادة قوله تعالى : « ودَمَّرْنا ما كان يَصْنَعُ فِرْعَونُ وقوْمُهُ وما كانوا يَعْرِشُون »[٤] .

وبالجملة فهى فُرْضَةٌ[٥] ، يُحمل خيرُها إلى ما سِواها ، فيحمل منها عن طريق بحر القُلْزُم إلى الحرمين واليمنِ والهندِ والصّين والسّند وبلاد إفريقية ؛ ومن جهة

(١) الآية ٥٥ (ك) ، السورة ١٢ (يوسف) .
(٢) الآية ٨٨ (ك) ، السورة ١٠ (يونس) .
(٣) الآية ٥١ (ك) ، السورة ٤٣ (الزخرف) .
(٤) الآية ١٣٧ (ك) ، السورة ٧ (الأعراف) .
(٥) فرضة البحر : محط السفن ، فكأن معناها الثغر أو الميناء .

بحر الرُّوم إلى بلاد الروم والقسطنطينية والإفرنج وسواحل الشام والثغور إلى حدود العراق ، و إلى صقلية وكريد و بلاد المغرب ؛ ومن جهة الصَّعيد إلى بلاد الغرب والنوبة والسودان والحبشة والحجاز واليمن؛ ولا سيَّما الآن بوصل البحرين الأبيض والأحمر ، واتصال أفريقيا بآسيا على وجهٍ أظهر ، فبهذا يقرب النقل منها و إليها من سائر الأقطارِ المعمورة ، والمنظور أنها تصير بمنافع جميع ممالك الدنيا مغمورة ، وتكثر مخالطتُها مع جميع الأمم ، فلا غرو أن يأتى لها زمانٌ يصير فيه تمدّنها راسخَ القدَم ، فإن لطالعَ التمدن دوراً مخصوصاً من أدوار الجمعيّات التأنسية ، عند حضور الأوان تسطع أنوارُه على سائر الآفاق والبلدان .

فكل مملكةٍ تأخذُ حظَّها الأوفر من التمدّن مُدَّةَ قرونٍ وأزمان بحميَّة أهلها ومغالاتهم فى حبِّ الأوطان، فقد شبَّهَ بعضُهم حبَّ الأوطان الحقيقى والغيرة عليها بحرارة جديدة محلية ، متمكنة من الأبدان الأهلية، متى حلَّت ببدن الإنسان غلبت على الحرارة الغريزية ، فلذلك إذا ظهرت الحميَّة الوطنيَّة فى أبناء الدِّيار المصرية ، وولعت بمنافع التمدنية ، فلا جرم أن تذكو نارُها وتغلب على القوّة الأولية ، فيحصل لهذا الوطن من التمدن الحقيقى — المعنوى والمادى — كمال الأمنية ، فيقدح زنادِ الكدِّ والكدح ، والنهوض بالحركة والنقلة والإقدام على ركوب الأخطار ، تنال الأوطانُ بلوغَ الأوطار .

ب ـ حب الوطن الخصوصى (طهطا)

« إنَّ حُبَّ الوطنِ من الإيمان ، ومن طبع الأحرار إحرازُ الحنين إلى الأوطان ، ومولدُ الإنسانِ على الدوام محبُوب ، ومنشؤه مألوفٌ له ومرغوب ، ولأرضِكَ حرمةُ وطنِها ، كما لوالدتك حَقٌّ لَبَنِها ، والكريمُ لا يجفو أرضاً بها قوابله و ولا ينسى داراً فيها قبائله ، فإنى و إن ألبستنى المحروسةُ (القاهرة) نِعَماً ، ورفعتْ لى بين أمثالى عَلَماً ، وكانت أمّ الوطن العام ، وولية الآلاء والإنعام ، وأحبُّها حبًّا جمًّا ، لأنها وليَّةُ النعما ، وقضيتُ فيها الأر بعين مجاوراً « كرام السَّجايا والبحور الطَّواميا » ، فلا زلت أتشوقُ إلى وطنى الخصوصى وأتشوَّفُ ، وأتطلع إلى أخبارِه السَّارّة وأتعرَّفُ ، ولا أساوى بطهطا الخصبةِ سِواها ، فى القيامِ بالحقوقِ و إكرامِ مثواها .

منازِلُ ، لستُ أهوى غيرَها ، سُقيتِ حَيًا يعمُّ ، وخُصَّتْ بالتَّحيَّاتِ[1]

وأمنحُها — زمناً بعد زمن — الزِّيارة ، وأجدّد فيها من هباتِ الحكومة العمارة ؟ وأبذلُ فى محبَّتها النفس ، لتحصيلِ الأراضى للزرع والغرس ، وأفتخرُ بها كما افتخر عصامٌ بالنفسَ ، وأنشد قول الحافظ كمال الدين الأدفوى[2] :

أحنُّ إلى أرضِ الصَّعيدِ وأهلِهِ ويزدادُ وَجْدى حين تبدُو قِبابُها
وتذكُرُها فى ظُلْمةِ الليل مُهْجتى فتجرِى دموعاً إذ يزيدُ التهابُها

---

(١) الحيا : المطر .

(٢) كمال الدين جعفر بن ثعلب الادفوى (٦٨٥ — ٧٤٨ هـ) أديب مؤرخ ، له كتب كثيرة ، أهمها : « الطالع السعيد ، الجامع لأسماء نجباء الصعيد » .

وما صَعُبَتْ يوماً علىّ مُلِمّةٌ   وشاهَدْتُها إلاّ وهانَتْ صِعابُها
بِلادٌ بها كانَ الشّبابُ مُساعِدِى   على نَيْل آمالٍ عَزيزٍ طِلابُها
مواطنُ أهْلِى ثمّ صَحْبِى وجِيرَتِى   وأولُ أرْض مَسّ جِلْدِى تُرابُها

٢ — آراؤه فى التربية والاجتماع

ا — تربية البنين والبنات

ينادى رفاعة فى هذا الفصل بما ينادى به اليوم علماء التربية المحدثون ، فهو يقول بضرورة تعليم الأولاد جميعاً فى مرحلة الطفولة الأولى الأشياء الضرورية الإجبارية ، وهى : القراءة والكتابة ، والحساب ، ومبادئ الأخلاق الفاضلة ، والدين ، والرياضة البدنية ، والتربية العسكرية ؛ ثم تراعى بعد هذا الاستعدادات والميول الفطرية ، فيوجه كل طالب إلى الدراسة التى تؤهله لها هذه الاستعدادات والميول ، وهو أخيراً ينادى — ولأول مرة فى تاريخ مصر الحديث — بضرورة تعليم البنت ، وإشراكها مع الولد — على الأقل — فى تعلم الأشياء الضرورية من قراءة وكتابة ودين وحساب .

إنّ توصيلَ الولد إلى الرُّتبةِ المطلوبة والدّرجةِ المرغوبة ، تتوقّف على حُسْن التّربية والتهذيب ، والتّعليم والتّأْديب ، ولا يخفى أنّ اللهَ سبحانَه وتعالى شرّف الإنسانَ بمُضْغَتَيْن صغيرتيْن ، وهما: قلبُه ولسانُه ، وخصّه بصفتين عظيمتين ، وهما : همّتُه وإحسانُه ؛ وما عدا ذلك من محْض المال أو الجمال فإنما هو حظُّ الأدنياء من النِّساء والرِّجال ، فلا يرتفعُ المرءُ حتى يرفعه أكبراه وأصغراه ، فالجنان[1] قابلٌ واللسانُ قائلٌ ، والهمّة حاملة ، والإحسان فضيلة عاملة ، والجنان عارفٌ مُستقِرّ واللسان معترفٌ مُقِرّ ؛ والهمّة حركة منتشرة ، والإحسان بركة مبشّرة ؛ فإنّ الجنَان يُنشى ، واللسان يُفشى ، وكلاهمايساعدُ الهمّة والإحسان ، والعزم والإتقان

(١) الجنان : القلب .

ولذلك كان المرء بأصغريه ، ومعلومٌ أنّ الولدَ الصغيرَ مستعدٌّ بأصغريه إلى استكمالِ أكبريه ، فيحتاجُ إلى التربيةِ التى هى صنعةُ المربِّى الذى يقيمه الولىُّ لتأديبِ الصبىّ فيما يُقصد منه .

فيجبُ على الولىِّ أن يتأمّل فى حال الصّبىّ وما هو مستعدٌّ له من الأعمال ومتهيِّئٌ له منها ، فيعلم أنه مخلوقٌ له ؛ فالحديثُ يقول : « اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِق له »، فلا يحمله على غيره ، فإنه إن حمَلَه على غير ما هو مستعدٌّ له لم يُفلِحُ فيه عادةً ، فيفوتُه ما هو متهيّئ له .

فإذا رآه حسَنَ الفهم ، صحيحَ الإدراك ، جيِّدَ الحفظ واعياً ، فهذا من علامةِ قبوله للعلوم والفنُون وتهيؤه لها ، فلينقشْها فى لوحِ قلبه ما دام خالياً ، فإنها تتمكّن من القلب ، وتستقرّ فيه ، وتزكو(1) معه ؛ وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه عَلِمَ أنه لم يُخْلَقْ لذلك .

فإن رأى عينَه طامحةً إلى صَنْعَةٍ من الصّنائع ، مستعدًّا لها ، قابلاً عليها ، وهى صناعةٌ مباحَة نافعة لأهلِ وطنه ، فليمكِّنه منها .

وهذا كله بعد تعليمه المعارف الابتدائية التى يشتركُ فيها كلُّ فَرْدٍ من أفراد الجمعيّة التأنسية ، وهى : الكتابةُ والقراءة ، وما يحتاجُ إليه فى دينه من العقائد وغيرِها ، وأصول الحساب ، ونحو ذلك من السّباحة والعوْم ، والفروسيَّة وأسبابها : من ركوبِ الخيل ، والرّمْى ، واللّعِب بالرُّمح والسّيف ، وأشباه ذلك من آلاتِ الحرب ، ليتمرّن على وسائل الدّفْع عن وطنِه ، والمحاماة عنه ؛ فإن

---

(1) تزكو : تنمو .

هذه الأشياء من المنافع العمومية التي ينبغي تمرين الأطفال في زمن الشبوبيّة عليها.

هذا بالنسبة للذكور، وأما بالنّسبة للبنات، فإنّ وليّ البنت يعلّمها ما يليقُ بها من القراءة، وأمور الدين، وكلّ ما يليق بالنّساء من خياطة وتطريز، وإن اقتضى حالُ البلاد تعليم النساء الكتابة وبعض مبادئ المعارف النافعة في إدارة المنازل فلا بأسَ بتعليم الحساب وما أشبهه لهن، ويشترك الصّبيان والبنات في تعليم الأخلاق والآداب وحسن السلوك.

فبهذا كله يتيسّرُ للجميع كسب الفوائدِ الجسيمة المنتجة للاستقامة التامّة وغِنَى النفس، بما اكتسبه العقلُ من العلوم والمعارف، ومارسَتْه الأيدي من الصّنائع واللّطائف التي هي أمنٌ من الفقر.. إلخ»[1].

ب ـ المناداة بتعليم المرأة

كان رفاعة الطهطاوي رائداً في هذا الميدان فقد سبق قاسم أمين في المناداة بضرورة تعليم المرأة، وعالج هذا الموضوع بإيجاز في الفصل السابق، ولكنه في هذا الفصل يعالجه في تفصيل واف، ويسوق البراهين الكثيرة لتأييد رأيه.

ينبغي صَرْفُ الهمّةِ في تعليم البنات والصّبيان معاً، لحسْن معاشَرةِ الأزواج، فتتعلّمُ البناتُ القراءةَ والكتابةَ والحسابَ ونحوَ ذلك، فإنّ هذا ممّا يزيدُهن أدباً وعقلًا، ويجعلهنّ بالمعارف أهلًا، ويصلحن به لمشاركةِ الرّجال في الكلام والرّأي، فيعظمن في قلوبهم، ويعظمُ مقامُهنّ، لزوالِ ما فيهن من سَخافةِ العقل والطّيْش، ممّا ينتجُ من معاشرةِ المرأةِ الجاهلة لمرأةٍ مثلها، وليمكن للمرأة

(١) «مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية» ص ٦٥ – ٦٦.

عند اقتضاء الحال أن تتعاطَى من الأشغالِ والأعمال ما يتعاطاهُ الرِّجال ، على قَدْرِ قوَّتها وطاقتِها ، فكلُّ ما يطيقُه النساء من العمل يباشِرْنَهُ بأنفسهنّ ، وهذا من شأنه أن يُشْغِلَ النساءَ عن البطالة ، فإنّ فراغَ أيديهنّ عن العمل يُشغل ألسنتهنّ بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعالِ الأقاويل ، فالعملُ يصونُ المرأةَ عمّا لا يليق ، ويُقرِّبُها من الفضيلة .

وإذا كانت البطالةُ مذمومةً فى حقِّ الرجال فهى مَذَمَّةٌ عظيمةٌ فى حَقِّ النساء ، فإنَّ المرأةَ التى لا عملَ لها تقضِى الزمن خائضةً فى حديثِ جيرانِها ، وفيما يأ كلُون ويشربُون ، ويلبسون ويفرشون ، وفيما عندهم وعندَها ، وهكذا .

وأمَّا القولُ بأنّه لاينبغى تعليمُ النساء الكتابةَ ، وأنَّها مكروهةٌ فى حقِّهن ارتكانًا على النَّهىْ عن ذلك فى بعض الآثار ، فينبغى أن لا يكون ذلك على عمومِه ، ولا نَظَرَ إلى قَوْلِ من علَّل ذلك بأنّ من طبعهنَّ المكرَ والدّهاء والمداهنة ، ولا يُعتمد على رأيهن لعَدَمِ كمالِ عقولهنّ ، فتعليمُ القراءة والكتابة ربما حملهن على الوسائلِ غيرِ المَرْضِية ، ككتابة رسالةٍ إلى زيد ، ورقعةٍ إلى عمرو وبيتِ شِعْرٍ إلى خالد ، ونحو ذلك ، وأن الله تعالى لو شاء أن يخلقهنّ كالرِّجال فى جَوْدَةِ العقلِ وصوابِ الرأى وحُبِّ الفضائل لَفَعَلَ ، فكان الله تعالى خلقهنَّ لِحفْظ مَتاعِ البيت ، ووعاء لصوْن مادة النسل .

فثلُ هذه الأقوال لا تُفيد أنّ جميعَ النِّساء على هذه الصِّفات الذَّميمة ، ولا تنطبقُ على جميع النساء ، وكم من نَهْىٍ وردتْ به الآثار ، كحُبِّ الدنيا ومقاربة السَّلاطين والملوك ، والتَّحذير من الغِنَى ، فقد حُمل على ما يعقبه شرٌّ وضررٌ محقَّق ، وتعليمُ البنات لا يتحقق ضررُه ؛ فكيف ذلك وقد كان من أزواجه

— صلى الله عليه وسلم — من يكتبُ ويقرأ ، كحفصة بنت عمر ، وعائشة بنت أبى بكر — رضى الله عنهم — وغيرهما من نساء كل زمنٍ من الأزمان .

ولم يُعهد أنّ عدداً كثيراً من النساء ابتذلنَ بسبب آدابهنّ ومعارفهنّ ، على أنّ كثيراً من الرجال أضلّهم التوغّل فى المعارف ، وترتّب على علومهم مالا يُحصى من شبهِ الخروج والاعتزال ؛ وليس مرجِعُ التّشديد فى حِرْمان البنات من الكتابة إلاّ التّغالى فى الغَيْرَة عليهن من إبراز محمودِ صفاتهنّ أيًّا ما كانت فى مَيْدان الرِّجال ، تبعاً للعوائد المحليّة المشوبة بجمعية أهلية .

ولو جُرِّب خلافُ هذه العادة لصَحّت التجربة ، فإنّنا لو فرضنا أن إنساناً أخذ بنتاً صغيرةَ السّنِّ مميِّزة ، وعلّمها القراءةَ والكتابةَ والحسابَ ، وبعضَ ما يليق بالبنات أن يتعلّمْنَه من الصّنائع : كالخياطة ، والتطريز ، إلى أن تبلغ خمسةَ عشرَةَ سنة[1] ، ثم زوّجها لإنسانٍ حسَنِ الأخلاق كاملِ التّربية مثلها فلا يصحّ أنها لا تحسن العشرةَ معه ، أو لا تكون له أمينةً ، ومثل ذلك سائرُ البنات ، فإن تعليمهنّ فى نفسِ الأمر عبارةٌ عن تنويرِ عقولهنّ بمصباح المعارف المرشدِ لهنّ ، فلا شكّ أن حصولَ النّساء على مَلَكَةِ القراءةِ والكتابة ، وعلى التخلّقِ بالأخلاقِ الحيدة ، والاطلاع على المعارفِ المفيدة ، هو أجملُ صِفاتِ الكمال ، وهو أشوقُ للرِّجال المتربّين من الجمالِ ، فالأدبُ للمرأةِ يُغْنِى عن الجمال ، لكنّ الجمالَ لا يُغْنِى عن الأدب ، لأنه عَرَضٌ زائل .

وأيضاً آدابُ المرأة ومعارفُها تؤثّر كثيراً فى أخلاق أولادِها ، إذ البنتُ الصّغيرةُ متى رأت أمّها مُقْبِلَةً على مطالعةِ الكتب ، وضَبْطِ أمورِ البيت ،

(١) فى الأصل : « خمسة عشر » .

والاشتغالِ بتربية أولادِها جذبَتْها الغيْرَةُ إلى أن تكون مِثْلَ أُمِّها ، بخلاف ما إذا رأتْ أُمَّها مقبلةً على مجرَّد الزِّينة والتبرُّج ، وإضاعةِ الوقت بهَذَرِ[1] الكلام ، والزياراتِ غير اللَّازِمَة ، حيث تتصوّر البنتُ من الصِّغَر أنّ جميعَ النساءِ كذلك ، فتألَفُ ذلك من صِغَرِها .

فشتَّانَ بين هذه وبين من تعتمدُ على معارفها وآدابِها ، وتفعَلُ ما فيه إرضاء بَعْلِها[2] وتربيةُ أولادِها ، لأنها شبَّت على ذلك ، كما قال البوصيرى[3] — رحمه الله — :

والنَّفسُ كالطفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى ... حُبِّ الرَّضاعِ ، وإنْ تَفْطِمْهُ يَنفَطِمِ

وقد قضتْ التجربةُ فى كثيرٍ من البلاد أنّ نَفْعَ تعليمِ البناتِ أكثرُ من ضررِه ، بل إنه لا ضررَ فيه أصلاً . . . إلخ[4] .

(١) الهذر : الهذى والخلط والكلام بما لا ينبغى .

(٢) البعل : الزوج .

(٣) محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجى البوصيرى (٦٠٨ — ٦٩١ هـ) شاعر مصرى مجيد عاش فى القرن السابع الهجرى ، وله أشعار كثيرة أجملها ما قاله فى مدح النبى عليه السلام ، وأشهر قصائده فى هذا المعنى قصيدة البردة ، وقد نهج نهجها كثير من الشعراء بعده ، كان آخرهم أحمد شوقى .

(٤) «المرشد الأمين للبنات والبنين» ص ٦٦ — ٦٨

حـ – وجوب تعليم الأزهريين العلوم العصرية

تلقّى رفاعة علومه الأولى فى الأزهر ، ثم بعث إلى فرنسا فدرس العلوم المدنية الحديثة فى باريس ، وأدرك بهذا ما لهذين النوعين من الدراسات من فوائد ، وكان من الطلائع الذين نادوا بإصلاح الأزهر ووجوب إدخال العلوم العصرية فى مناهج الدراسة به .

. . . ومدارُ سلوكِ جادّة الرّشاد والإصابة مَنُوطٌ — بعد ولىّ الأمر — بهذه العصابة (يقصد شيوخ الأزهر وطلابه) التى ينبغى أن تضيفَ إلى مايجبُ عليها من نشر السنَّة الشريفة ، ورفع أعلامِ الشريعة المنيفة ، معرفةَ سائر العلوم البشريّة المدنيّة ، التى لها مدخلٌ فى تقديمِ الوطنية ، من كل ما يُحمدُ على تعلّمه وتعليمه علماء الأمة المحمدية ، فإنه بانضمامِه إلى علوم الشَّريعة والأحكام يكون من الأعمالِ الباقية على الدوام ، ويقتدِى بهم فى اتباعه الخاصُّ والعامُّ حتى إذا دخلوا فى أمورِ الدولة يحسن كل منهم فى إبداء المحاسن المدنيّة قولَه ، فإن سلوكَ طريقِ العلم النافع من حيث هو مستقيم ، ومنهجَه الأبْهَجَ هو القويم يكون بالنسبة للعلماء سلوكه أقوم ، ، وتلقّيه من أفواههم أتمّ وأنظم ، لا سيّما وأن هذه العلومَ الحكميةَ العمليةَ ، التى يظهرُ الآن أنها أجنبيّة ، هى علومٌ إسلامية ، نقلها الأجانبُ إلى لغاتِهم من الكتب العربية ، ولم تزل كُتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذّخيرة ، بل لا زالَ يتشبّث بقراءتِها ودراستِها من أهل أوربا حكماء الأزمنة الأخيرة ، فإنَّ من اطّلع على سَنَد شيخ الجامع الأزهر الشيخ أحمد الدمنهورى(١) رأى أنه قد أحاطَ من دوائر هذه العلوم

(١) هو الشيخ أحمد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهورى ، ولد فى دمنهور سنة ١١٠١ هـ ، وولى مشيخة الأزهر سنة ١١٨٢ هـ ، ولبث فى المشيخة عشر سنوات إلى أن توفى سنة ١١٩٢ هـ . راجع (سليمان رصد « كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر » ص ١٣٠ – ١٣١) .

بكثير، وأن له فيها المؤلفات الجمّة ، وأن تلقّيها إلى أيامه كان عندَ أهل الجامع الأزهر من الأمور المهمة .

« . . . فلو تشبّث من الآن فصاعداً نجباء أهل العلم الأزهريين بالعلوم العصرية التى جدّدها الخديو الأكرم بإنعامه عليها أوفر أموال مملكته ، لفازوا بدرجةِ الكمال ، وانتظموا فى سلك الأقدمين من فُحولِ الرجال ؛ وربّما يتعلّلون بالاحتياج إلى مساعدةِ الحكومة ، والحالُ أنّ الحكومةَ إنما تساعدُ من يلوحُ عليه علاماتُ الرغبة والغَيْرة والاجتهاد ، وهى قد ساعدتْ بتسهيلِ الوسائطِ والوسائِل ، ليغتنمَ فرصةَ ذلك كلُّ طالبٍ وسائل ؛ وكل من سار على الدّرْب وَصَل ، وإنما تكونُ المكافأة على تمام العَمَل . . . »[١] .

٣ ــ وصفه لبعض مظاهر المجتمع الفرنسى

كانت الحياة فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر مختلفة جد الاختلاف عن الحياة فى أوربا ، وقد لفت هذا الاختلاف أنظار رفاعة الفتى الأزهرى عند وصوله إلى فرنسا وفى أثناء مقامه بباريس ، فقدم رفاعة فى رحلته صوراً طريفة من المجتمع الباريسى كما رآه ، ونحن ننقل هنا بعض هذه الصور الوصفية .

١ ــ نظام الأكل عند الفرنسيين

. . . وعادةُ الفرنساوية الأكلُ فى طباقٍ كالطّباقِ العجميّة أو الصّينيّة ، لا فى آنية النّحاس أبداً ، ويضعون على السُّفرة دائماً قُدّامَ كلّ إنسانٍ شوكةً وسكّيناً ومِلْعقة ، والشّوكةُ والمِلْعَقَة من الفضّة .

(١) «مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية» ص ٣٧٢ ــ ٣٧٦ .

ويرَوْن أنَّ من النظافةِ والشّلبنة[1] أن لا يمسّ الانسانُ الشّئَ بيدهِ ، وكلٌّ إنسانٍ له طبقٌ قدَّامَه ، بل وكلُّ طعامٍ له طبَق ، وقُدام الإنسان قدَحٌ يصبّ فيها ما يشرُبه من قزازة عظيمةٍ موضوعةٍ على السُّفرة ، ثم يشربُ فلا يتعدَّى أحدٌ على قدَح الآخر ، فأوانى الشُّرب دائماً من البلاور والزّجاج ؛ وعلى السفرةِ عدّة أوانى صغيرة من الزّجاج ، أحدُها فيه ملح ، والآخر فيه فلفل ، وفى الثالث خردل ، إلى آخره؛ وبالجملة فآدابُ سفرتهم وترتيبها عظيمٌ جدًّا :

وابتداء المائدة عندهم الشُّوربة . واختتامُها الحلويات والفواكه ، والغالبُ فى الشراب عندهم النَّبيذ على الأكل بدل الماء ويكثرُ فى باريس شرب الشَّاى عَقِبَ الطَّعام ، لأنهم يقولون إنّه هاضِم للطعام ، ومنهم منْ يشرَبُ القهوة مع السكّر ، وفى عوائد أغلب النّاس أن يفتتوا الخبزَ فى القهوةِ المخلوطةِ باللبن ويتعاطونَها فى الصّباح .

ومع كثرة تفنّنهم فى الأطعمةِ والفطورات ونحوها فطعامهم على الإطلاق عديم اللّذة ، ولا حلاوةَ صادقة فى فواكه هذه المدينة إلا فى الخوخ .

وأمّا خمّاراتُها فإنها لا تُحصَى، فما من حارةٍ إلا وهى مشحونةٌ بهذه الخَمَّارات ولا يجتمعُ فيها إلاَّ أراذلُ الناس وحرافيشهمْ مع نسائهم، ويُكثِرون الصّياح وهم خارجون منها بقولهم ما معناه : الشَّراب ، الشراب ؛ ومع ذلك فلا يقعُ منهم فى سُكْرِهم أضرارٌ أصلاً ؛ وقد اتفق لى ذات يوم وأنا مارٌّ فى طريق باريس أن سكراناً صاح قائلاً : « يا تركى ، يا تركى » ، وقبض ثيابى ، وكنت قريباً

---

(١) هذا اللفظ مشتق من الكلمة التركية : شلبى أو چلبى ومعناها نظيف أو أنيق .

(٢) هذا هو المصطلح العامى للكلمة العربية « زجاجة » .

من دكّان يباعُ فيه الشكّر ونحوه ، فدخلتُ معه وأجلستهُ على كرسى ، وقلتُ لرَبِّ الحانوت على سبيل المزاح :

— « هل تريدُ أن تعطينى بثمنِ هذا الرجل سكراً أو نُقلاً ؟ »

فقال صاحبُ الحانوت :

— « ليس هنا مثل بلادكم يجوز التصرّف فى النوع الإنسانى »

فما كان جوابى له إلا أننى قلت :

— « ان هذا الشّخص السّكران ليس فى هذا الحال من قبيل الآدميين »

وهذا كلّه والرّجُل جالسٌ على الكرسى ولا يشعرُ بشىء من ذلك ؛ ثم تركته بهذا المحل وذهبت ...(١)

ب — ملابس الفرنسيات

« وملابسُ النّساء ببلادِ الفرنسيس لطيفةٌ بها نوعٌ من الخلاعَة ، خصوصاً إذا تزيّنّ بأغلى ما عليهنُ ، ولكن ليس لهن كثير من الحلى ، فإن حليهنّ هو الحلق المذهّب فى آذانهِنّ ، ونوعٌ من الأساور الذهب يلبسنه فى أيديهنّ خارجَ الأكمام ، وعقدٌ خفيفٌ فى أجيادِهِنّ ؛ وأمّا الخلاخل فلا يعرفونها أبداً .

ولبسُهُنّ فى العادة الأقمشة الرقيقةُ من الحرير أو الشّيت أو البفت الخفيف،ولهنّ فى البرد شريطُ فروةٍ فيضعونَه فى رقابهن و يرخين طرفيه كالمأزر حتى يصل بطرفيه إلى قرب القدمين .

ومن عوائدهن أن يحتزمنَ بحزامٍ رفيعٍ فوق أثوابهنّ حتى يظهر الخصْرُ نحيفاً ، و يبرز الرِّدْف كثيفاً ، ومن خصال النساء أن يشبكن بالحزامِ قضيباً من صفيح

(١) « تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز » ص ١٠٤ — ١٠٥ .

من البطنِ إلى آخرِ الصّدر حتى يكونَ قوامهنّ دائماً معتدلاً لا اعوجاجَ به .

ولهنّ كثيرٌ من الحيَل، ومن خصالهنّ التى لا يمكن للإنسان أن لا يستحسنَها منهنّ عدمُ إرخائهنّ الشُّعورَ كعادة نساء العرب ، فإن نساء الفرنسيس يجمعْنَ الشعور فى وسطِ رؤوسهنّ ويضعْنَ فيه دائماً مشطاً ونحوه .

ومن عوائدهنّ فى أيامِ الحرِّ كشفُ الأشياء الظاهرية من البدن، فيكشفْنَ من الرأس الى ما فوق الثَّدْىِ حتى أنه يمكن أن يظهرَ ظهرُهن ، وفى ليالى الرقص يخلعْنَ عن أذرعتِهنّ ، وبالجملة فلا يُعَدُّ ذلك من الأمورِ المخلّة عند أهلِ هذه البلاد ، ولكن لا يمكن لهنّ أبداً كشفُ شىء من الرّجلينِ ، بل هنّ دائماً لابساتٌ للجُرابات الساترة للساقين ، خصوصاً فى الخروج إلى الطرق ، وفى الحقيقةِ سيقانهنّ غير عظيمة أصلاً .

ومن المتداولِ عند الفرنساوية استعمالُ الشُّعور العارية لنحو الأقرع وردى الشّعْر بل قد يستعملونها فى اللحى والشارب للتقليد ، وقد شاعتْ عندهم تلك العادةُ من زمن لويز الرابع عشر ملك فرنسا ، حيث أن هذا الملك كان يلبسُها ولا يخلعُها من رأسه أصلاً إلا عند النوم ، ولا زالت إلى الآن مستعملةً لكن للأقرع أو ردى الشعر، ومن الغريب أنها تستعمل الآن فى مصر بين نساء القاهرة [١] .

حـ ـ متنزهات باريس

. . . ومن متنزّهات باريس الحدائقُ العظيمةُ العامّة ، ففى باريس نحوُ أربعةِ بساتين كبرى ، يتماشى فيها الخاصُّ والعامُّ ، فمنها حديقةٌ تسمّى :

---

(١) « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » ص ١٠٦ — ١٠٧ .

« الشمبزليزه[١] » ، معناه بالعربية « رياض الجنة » ؛ وهى من أرقّ المتنزّهات وأنْضَرها ، وهى بستانٌ عظيم يبلغ أربعين أربانا ، والأربان هو قياسٌ يقرب من الفدان .

ومع أنّ طول طريقها نحو ألف قامة ، فإنها موضوعةٌ بحيثُ إنك إذا مددتَ نظرَكَ رأيتَ طرفَها الثانى قُدّامَ عينيك ، وفى هذه الروضة العظيمة دائمًا شىءٌ من الملاهى لا يمكن حصْرُه ، وسائر أشجارِ هذا البستان متصافّة متوازِية بعضها مع بعض ، رُتبت بحيث إنه يوجدُ مدخلٌ من كلّ الجهات ، فهو على سمت الخطوط المستقيمة من سائر الجهات ، وفى وسط كل جملة من الأشجار يوجد محل مربع .

وهذه الحديقة يتّصلُ أحدُ جوانبها بنهر السّين ، وبينها وبينه رصيف ، وبجانبها الآخر بيوتٌ بأطراف الخلا ، وفيها كثير من القهاوى والرسطراطورات[٢] — يعنى بيوت الأكل — ، وفيها سائرُ أنواعِ الطعام والشّراب .

وهى مجمعُ الأحباب والأكابر ، وبها كثيرٌ من المرامح للخيل ، ويدخل فيها الأكابرُ بالعربيّات المزيّنة ، وفيها عدّةُ آلاف من الكراسى بالأجرة ، يُجلس عليها فى زمنِ الربيع نهارًا ، وفى زمنِ الصيف ليلاً ، وأعظمُ اجتماعِ الناس فيها يوم الأحد ، فإنّه يومُ البطالة عند الفرنساوية ، وبالجملة فهذه الحديقة محلٌ للمواسم وللأفراح العامة والزينات ، وبها تماشى سائرُ النساء الجمالات[٣][٤] .

---

(١) هذا هو الرسم العربى للكلمة الفرنسية : Champs Elysés

(٢) هكذا رسم رفاعة الكلمة الفرنسية Restaurant بمعنى مطعم .

(٣) هذا تعبير عامى ، والصحيح أن تقول « جميلات » . إلا أن يكون قد أراد أن يصف بالمصدر من مثل قولهم : شاهد عدل وشهود عدول ، أو كقول حسان بن ثابت الأنصارى :

لعمر أبيك الخير يا شعث ما نبا علىّ لسانى فى الخطوب ولا يدى

فقد وصف كلمة « أبيك » بكلمة « الخير » وهى مصدر .

(٤) « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » ص ١١٣ — ١١٤ .

٢ ــ رفاعة الشاعر

١ ــ وطنياته

كان صوت رفاعة الطهطاوى أول صوت ارتفع فى تاريخنا الحديث للتحدث عن الوطن والوطنية ، والإشادة بأمجاد مصر فى عصورها القديمة والحديثة ، ودعوة المصريين إلى الاعتداد بتاريخهم وبحضارتهم ، وقد تناول هذه المعانى جميعاً فيما كتب – نثراً وشعراً – وفيما يلى هنا نماذج لوطنياته الشعرية .

قال رفاعة فى مطلع قصيدة من قصائد المديح :

المجد الأثيل

أبناءَ مصرَ نحنُ موطنُنا أصيلْ
حَسَبٌ عَرِيقٌ زانَهُ مَجْدٌ أثيلْ
وفَخارُنا فى الكونِ جَلَّ عن المثيلْ
لِرِحابِنا تُطْوَى المهامِهُ[2] بالطِّلاحْ[3]

نحنُ السَّرَاةُ[1] وشأنُنا حُبُّ الوطَنْ
ولِشأنِنا السَّامِى تزَاحَمَ مَنْ قَطَنْ
شانى[2] حِمانا ليسَ من أهْلِ الفِطَنْ

---

(١) طبعت هذه القصيدة وحدها فى بولاق سنة ١٢٧٢ هـ بعنوان « منظومة وطنية مصرية » .
(٢) المهمه : المفازة والبرية القفر ، والجمع مهامه .
(٣) الطلاح : الإبل المزيلة ، والمعنى أن رحابنا مقصودة من أقصى الجهات يقدم إليها الإنسان فتهزل مطاياه بطول المسافة .
(٤) السراة : اسم جمع لسرى ، وهو الشريف ذو المروءة .
(٥) شانى : أى كاره أو مبغض .

فَهوَ الدَّعِيُّ[١]، وعِرْضُهُ شَرْعاً مُبَاحْ

وطَنٌ عزيزٌ لا يُهانُ ولا يُضامْ
وحِمًى تعَزَّزَ مَنْ على عَلْياهُ حَامْ
مجدٌ لهُ لا زالَ يخترقُ الغَمامْ
عَيْنُ السُّهَا[٢] لفَخارِه ذاتُ الْتِماحْ

يا أهلَ مصرِ برُّ مصرِ فرْضُ عَيْنْ[٣]
فى البِرِّ نبذلُ عن رِضىً نَفْسًا وعَيْنْ
وإذا الرَّقيبُ دَنَا لَها بالحاظِ عَيْنْ
ما عِنْدَنا من فقْهِها إلَّا الرِّمَاحْ

وهذه قصيدة وطنية أخرى تشبه أن تكون نشيداً وطنياً :

مصر نور الكون

يا صاحِ حُبّ الوَطَنِ   حِلْيَـةُ كل فَطِنِ
محبَّـــةُ الأوطانِ   من شُعَبِ الإيمــانِ
فى أفْخَـــرِ الأدْيانِ   آيةُ كُلِّ مُؤْمِنِ

---

(١) الدعى : الدخيل فى القوم وليس منهم .
(٢) السها : كوكب ، والالتماح النظر .
(٣) العين هنا المال من ذهب وفضة .

يا صاحِ حبُّ الوطنِ حِلْيَةُ كلِّ فَطِنِ
مَســـاقِطُ الرُّءوسِ تَلَذُّ للنُّفـــوسِ
تُذْهِبُ كلَّ بُوسِ عَنَّا ، وكلَّ حَزَنِ

يا صاحِ حُبُّ الوطَنِ حِلْيَةُ كلِّ فَطِنِ[1]
ومِصْرُ أبْهَى مَوْلِدِ لَنـا ، وأزهَى مُحْتِدِ
ومَرْبَعٍ ومَعْهَـــدِ للرُّوحِ أو لِلْبَدَنِ

شُدَّتْ بهـا العَزائمُ نِيطتْ بها التَمـائمُ
لِطَبْعِنـــا تُلائمُ فى السِّرِّ أو فى العَلَنِ

مِصْرُ لهـــا أيادِى عُلْيا على البِـــلادِ
وفَخْـــرُها يُنادِى ما المَجدُ إلّا دَيْدَنِى[2]

الكونُ من مِصْرَ اقتبَسْ نورًا ، وماعَنْهُ احتَبَسْ
وما فَخارُها الْتَبَسْ إلا على وغْدٍ دَنِى

فخرٌ قديمٌ يُؤْثَرُ عن سادَةٍ ويُنْشَرُ
زهُورُ مَجْـــدٍ تُنْثَرُ منها العُقولُ تجْتَنِى

---

(١) من المفروض أن يتكرر هذا البيت بعد كل مقطوعة مكونة من بيتين ، وقد أثبتناه بين المقطوعات الثلاث الأولى ، ثم لم نجد فائدة من تكراره .

(٢) الديدن : الدأب والعادة .

دارُ نَعيمٍ زاهِيهْ ومَعْدِنُ الرُفاهِيهْ
آمِرَةٌ وناهِيهْ قِدْمًا لكلِّ المُدُنِ

تحْنُو على القَرِيبِ تحلُو لَدَى الغَرِيبِ
تَرْنُو إلى الرَّقِيبِ شَزراً بسَهْمِ الأعْيُنِ

قوّةُ مِصرَ القاهِرهْ على سِواها ظاهِره
وبالعمارِ زاهِرَه خُصّتْ بذكرٍ حَسَنِ

عُلومُها حَقائِقُ فهُومُها دقائقُ
رُمُوزُها رَقائقُ تحلو لأهْلِ الفِطَنِ

أمَا تَرَى الأهالِي تَرْقَى ذُرا المَعالِي
هم سادةٌ مَوالِي جَمالُ وجهِ الزَّمَنِ [1]

أبناؤُها رِجالُ لم يَثْنِهِمْ مَجالُ
ولا بِهِمْ أوْجالُ فى ليلِ وقعٍ دَجِنِ [2]

وجندُهم صِنْدِيدُ وقَلْبُهُ حَديدُ
وخصْمه طَرِيدُ بل مُدْرَجٌ فى كَفَنِ

---

(١) موالى : جمع مولى وهو من الأضداد وهنا بمعنى السيد .
(٢) الأوجال : جمع وجل ، الخوف . والدجن : المظلم .

كلُّ فَتًى جليلِ يعشقُ وادِى النِّيلِ
كمْ فيهِ من نَزِيلِ يقولُ : مِصْرُ وَطَنِى

وقال فى قصيدة وطنية ثالثة :

المربع السامى

ليسَ اللَّبيبُ ذو الفِطَنْ إلاَّ المحبُّ للوطَنْ
ومَوضعٌ به قَطَنْ لَدَيْه أسْمَى موضِعِ (١)

فسقطُ الرَّأسِ أحَبّْ من رأسِ مالٍ يُكْتَسَبْ
ومَنْ لحبِّهِ انْتَسَبْ فهوَ الذكىُّ الألْمَعِى

أكْرِمْ بمصرَ من حِمَى عُلاهُ قد سامَى السَّما
مَرْبَعُهُ لقد سَما فيالَهُ من مَرْبَعِ

فمصرُ ، ما أجلَّها الكلُّ يهْوَى وصْلَها
فإن رَنَتْ عينٌ لها نفقؤها بالإصْبَعِ

رَفيعَةٌ شُؤونُها مَنيعَةٌ حُصُونُها
بديعَةٌ فُنونُها كم شَيَّدتْ من بَلْقَعِ (٢)

---

(١) قطن : مكن .
(٢) البلقع : الأرض القفر .

ومن وطنيات رفاعة قصائد أو منظومات يشيد فيها بذكر الجيش المصرى وشجاعة جنوده وأبطاله ويتغنى بانتصاراته وأمجاده ، وقد أتينا هنا بنموذجين لهذا النوع من القصائد :

الجيش المصرى ومفاخره

نُنظِّمُ جُنْدَنا نَظْمَا عَجِيباً يُعجزُ الفَهْمَا
بِأُسْدٍ تُرْعِبُ الخَصْمَا فَمَنْ يَقْوى يناضِلُنا

رجالٌ ما لَها عَدَدُ كَمالُ نظامِها العُدَدُ
حُلاَهَا الدِّرْعُ والزَّرَدُ سِنَانُ الرُّمحِ عامِدُنا

وهَلْ لخيولِنا شَبَهُ كرائمُ ما بها شُبَهُ[1]
إليها الكُلُّ مُنْتَبِهُ وهل تَخْفَى أصائلُنا

لَنا فى الجيشِ فُرْسانُ لهمْ عِنْدَ اللِّقا شَانُ
وفى الهَيْجاءِ عُنْوانُ تَهِيمُ بِهِ صَواهِلُنا[2]

مدافِعُنا القَضَا فيها وحُكْمُ الحَتْفِ فى فِيها[3]
وأَهْونُها وجافِيهـا تَجُودُ به معامِلُنا

لَنا الرُّؤَساءُ أَبْطالُ رِجالٌ أينما جالُوا
بصَوْلَةِ عَيْلمٍ صالوا يفوقُ الحدَّ صائلُنا[4]

(١) شبه فى الشطر الأول بمعنى النظير والمثيل . والشبه فى الشطر الثانى : جمع شبهة وهو ما يلتبس فيه الحق بالباطل والحلال بالحرام .
(٢) الهيجاء : الحرب . الصواهل : الخيول .
(٣) الحتف : الموت والهلاك .
(٤) العيلم : البحر والضبع الذكر .

لَنا فى المُدْن تَحْصِينُ وتنظـيمٌ وتحسِينُ
وتأييدٌ وتمـكِينُ مَنِيعاتٌ معاقِلُنا

وقال من قصيدة أخرى يخاطب جنود الجيش المصرى ويذكرهم بأمجادهم ، ويثير حماستهم :

يأيُّهـا الجُنُودُ والقادَةُ الأسُـودُ
إن أمَّكُمْ حَسُودُ يَـودُ هَامِى المدْمَعِ (١)

فـكم لكُمْ حُرُوبُ بنصرِكُمْ تؤُوبُ
لم تَثْنِكُمْ خُطوبُ ولا اقْتِحامُ مَعْمَعِ

وكم شَهِدْتُم من وَغَى وكم هزمْتُمْ مَنْ بَغَى
فن تعدَّى وطَغَى على حِمَاكُمْ ، يُصْرَعِ

٢ — شعره الوصفى

ا — وصف الوابور

قصائد رفاعة فى الوصف قليلة العدد ، وقد أحصيت منها اثنتين : الأولى وصف فيها أفراح الأنجال ، والثانية وصف فيها الوابور ، وقد أتينا هنا بالقصيدة الثانية كنموذج لهذا النوع من شعره .

العَقْلُ فى الوابورِ (٢) حَارْ نَبْغِى الجوابَ فلا يُحِيرْ
فإذا أردتَ الإخْتِبارْ عِلْمًا به ، فاسْأَلْ خَبِيرْ

---

(١) الهامى : المنسكب .

(٢) كانت مصر ثانى دولة فى العالم استعملت القاطرة البخارية والسكة الحديدية — بعد إنجلترا — ، وقد أطلق المصريون لفظ « وابور » على القاطرة البخارية ، واللفظة محرفة عن الكلمة الفرنسية (Vapeur) أو الإنجليزية (Vapour) بمعنى بخار .

فَلَكٌ بأَوْجِ اللجِّ دَارْ ... ومِنَ الحضيضِ له مُدِيرْ
يَجرِى على عَجَلٍ كِبارْ ... فى رَسْمِ شَكْلٍ مُسْتَدِيرْ
هُوَ من عطَارِدَ[1] لا يَفارْ ... فَكأنَّهُ الفلكُ الأسِيرْ
قد أوْرَثَ الشَّمسَ اصْفِرارْ ... لمَّا عَلا منهُ الصَّفِيرْ
قَمَرٌ منازِلُهُ البُخارْ ... نَجْمُ السِّمَاكِ[2] له سَمِيرْ
فى كَفِّهِ الجوْزا[3] سِوَارْ ... بَهَرَ الثُّريَّا إذْ تُشِيرْ
والمُشْتَرِى[4] حازَ اليَسارْ ... فَغَدا بِزُهْرَتِهِ أسِيرْ
مَلَكٌ له الوَحْىُ انْتمارْ ... أبدًا بأَجْنِحةٍ يَطِيرْ
وبراقُ أسْرَى فى القِفارْ ... يَطْوِى الفيافِىَ إذْ يَسِيرْ
مَلِكٌ على الأنْهارِ سَارْ ... وعلى البِحارِ لهُ سَرِيرْ
بالعزِّ أكْسَبَها الصَّغارْ ... مع أنَّهُ جِرْمٌ[5] صَغِيرْ
قد نالَ من كِسْرَى اعْتِبارْ ... ابُخارِ عَنْبَرِهِ عَبِيرْ
خاقانُ هِنْدٍ خوفَ عارْ ... ما هالَهُ لَهَبُ السَّعِيرْ
بُرْكانُ نارٍ حيثُ ثارْ ... نوراً ، وصارَ لَهُ هَدِيرْ
أو سائحٌ يَهْوَى السِّفارْ ... لمصالحِ الدُّنيا سَفِيرْ

---

(١) عطارد : نجم من السيارات وهو أقربها من الشمس .

(٢) السماك : أحد السماكين وهما كوكبان نيران ، يقال لأحدهما السماك الرامح ، لأن أمامه كوكباً صغيراً يقال له راية السماك ورمحه ، وللآخر السماك الأعزل لأنه ليس أمامه شيء .

(٣) الجوزا : مقصور الجوزاء وهى برج فى السماء .

(٤) المشترى : اسم كوكب . والزهرة : بضم الزاى وفتح الهاء اسم كوكب أيضاً وقد أسكن الشاعر الهاء لضرورة الوزن .

(٥) الجرم : أحد الأجرام الفلكية أى النجوم .

أو عاشِقٌ سُلِبَ القَرارْ أو يحسدُ الطَّرْفَ القَرِيرْ[١]
فى الحبِّ قد خَلَعَ العِذارْ ودموعُ مُقْلَتِهِ غَدِيرْ[٢]
صَبٌّ ، وفى الأحشاء نارْ شَوْقًا إلى القَمَرِ المنِيرْ
أو شاطِرٌ طلَبَ الفِرارْ للأَمْنِ من أمرٍ خَطِـيرْ
أو بازُ صَيْدٍ قد أغَارْ مغرى على الظَّبْيِ الغَرِيرْ
أو ظَبْيُ قاعٍ ذو نِفارْ يعدُو إذا عَمَّ النَّفِيرْ
البرقُ سُرْعَتَه استَعارْ والوُرْقُ منه تَسْتَعِيرْ[٣]
ويَرَى الرِّياحَ بالاحْتِقارْ فهبوبُها مَعَهُ حَقِيرْ
طَرْفٌ تُسَايِرُهُ الدَّرار ليلاً ، فتخجلُ فى المسِيرْ[٤]
لَّيْلِ يَطْوِى والنَّهَـارْ وبه ازْدَهَى الزَّمَنُ الأَخِيرْ
ما الفعلُ يُنْسَبُ لِلبُخارْ بل صُنْعُ خَلاَّقٍ قَدِيرْ

---

(١) الطرف القرير : العين الهانئة .

(٢) العذار : الحياء . يقال : خلع فلان عذاره وهو خليع العذار أى اتبع هواه وانهمك فى الغى وصار يقول ويفعل وما يبالى بشىء كالدابة بلا رسن .

(٣) الورق : جمع ورقاء مؤنث الأورق وهى الحمامة أو التى يضرب لونها إلى الخضرة .

(٤) الدرار : الدرارى أى النجوم .

٣ ــ أشعار تربوية

فى تأديب الأطفال

قدّم رفاعة لهذه القصيدة بقوله : «وقد كنت نظمت فى كتاب تعريب الأمثال فى تأديب الأطفال منظومة لطيفة تحسن بمنوال التعريب نسجها ، فيحسن هنا بمناسبة المقام إدراجها» ، وكتاب «تعريب الأمثال» الذى يشير إليه رفاعة ترجمه عن الفرنسية إلى العربية واحد من تلاميذ رفاعة وخريجى مدرسة الألسن ، واسمه عبد اللطيف أفندى ، ويقع هذا الكتاب فى ١٣٢ صفحة وقد طبع فى مطبعة بولاق سنة ١٢٦٣ هـ[1] ، ويلاحظ أنه يكرر فى هذه القصيدة دعوته الجريئة بضرورة تعليم البنت .

فى برٍّ والديكَ بالِـغْ تَغْنَمِ ... لا سيَّما فى العيدِ أو فى الموْسِمِ
وإنْ تَرُمْ سُرورَ أُمٍّ أو أبِ ... يوماً ، فكَسْبُ العِلْمِ خيرُ مَكْسَبِ
مَنْ رامَ عندَ النَّاسِ طُرًّا أنْ يُحَبْ ... فليلتزِمْ حُسْنَ السُّلوكِ والأدَبْ
وأنْ يكونَ طيِّبَ السَّريره ... مهذَّبَ الأخلاقِ زاكى السِّيرَه
مَنْ رَامَ بين العالَمِ ارْتِفاعَه ... فليـــلزمِ العِفَّةَ والقَناعه
هل ذَلَّ عندَ النَّاسِ عبدٌ يَقْنعُ ... أو عَزَّ سَيِّدٌ لديهمْ يَطْمَعُ
إنْ رُمْتَ أن تشوِّقَ الأولادَا ... وأن تَرَى من نَجْلِكَ اجْتهادا
فَعِدْهُ بالإتْحافِ يومَ العيـــدِ ... وقدِّمِ الوَعْدَ على الوَعيـدِ[2]
يُعـــاقَبُ الجانى بما جَناهُ ... وذاكَ فى دُنيـــاهُ أو عُقْباهُ
والظُّلمُ لا يترُكهُ المولى سُــدَى ... مآلُ كلِّ ظالمٍ إلى الرَّدَى

---

(١) انظر : (جمال الدين الشيال : «تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على» القاهرة ١٩٥١ ، ص ٢٥ من الملاحق .)

(٢) أتحفه الشىء وبالشىء : أهداه إليه أو أعطاه إياه . الوعيد : التهديد .

مَنْ رامَ أن يكتسبَ اللطافَه عليــــهِ طولَ الدهرِ بالنظافَه
فإنها من شُــعَبِ الإيمانِ تُطلَبُ فى الثيابِ والأبدانِ
وشَرُّ أوصافِ الفتَى هو الغضبْ يُفضَى إلى ارتِـكابِ مالا يُرْتَـكبْ
فيالَهُ من خصــلةٍ ذَميمه فى تركِها مصْلَحةٌ جسيمَه
وقوةُ الرأسِ معَ العِنــادِ من أقبحِ الخصالِ فى الأولادِ
والامتثالُ صِفةٌ جليــلَه للودِّ ليس مثلَهــا وسيلَه
مما يُعَدُّ من صِــفاتِ الذمِّ كَتْمُ الصغيرِ عن أبٍ أو أُمِّ
سِرًّا حقيراً أو جليلاً ، بل يجبْ إبداؤه ، وعنهما لا يحتجب
يَطَّلِعُ المولى عَلَى ما تعملُهْ بعلمه ، لكنّه قد يُمهِلُهْ
فَفُزْ بفعلِ صالحِ الأعمالِ تَحُزْ صلاحَ الحالِ والمآلِ
مَنْ يَعصِى والدَيْه ضَــلْ وندِمْ وساء حالُه ، وللرُّشدِ عــدِمْ
وضــاعَ سعيُه وخابَ أمَلُه مالم يَتُبْ ، فلا يضيعُ عملُهْ
وعفَّةُ الشَّريف عنــد الفقرِ وصَــبْرُهُ لعُسرِهِ مع شكْرِ
خيرُ فضــيلةٍ عليها يُحمَدُ يعقبها اليُسر ويبقى السُّودَدُ[1]
يمتازُ عن أقرانِه فى المكتبِ تشــملُهُ بَرَكَةُ المؤدِّبِ
فَضْلُ البناتِ الشُّغْلُ والتَّطريزُ ومَنْ حَوَتْ علْماً به تفوزُ
فى ســائرِ الأحوالِ الاحتِشامُ من جِنْسِهِنَّ والحيَا يُرامُ
الرِّفْقُ بالفقــيرِ والضَّعيفِ من حُسْنِ أخلاقِ الفتَى الشَّريفِ
وخوفُ ربِّ العرْشِ والمراقبَه أمنٌ من الشَّرِّ وسوءِ العاقِبَه

---

(١) السؤدد : القدر الرفيع وكرم المنصب .

مَنْ رامَ نَظْمِهِ بِسِلْكِ السُّعَدَا ... فلْيُسْعِدِ النَّاسَ لِيبقى مُسْعَدا
يُحِبُّ مِثْــــلَ مالَه لغيرِهِ ... يُعْطى أخاهُ جانباً من خَــيْرِهِ
يَحْسُنُ حِفْظَ اللوْحِ للصَّغيرِ ... على مِرارٍ ، بل وللكبيرِ
يَرْسَخُ فى الذِّهْنِ وليس يُمْحَى ... جَرِّبْهُ بالتَّقسيمِ ، واقْبَلْ نُصْحا
الـكِبْرُ ناشئٌ عن الحماقَه ... وما لعاقلٍ عليــــهِ طاقَه

٤ ـ الشعر الغنائى

بعد تولى عباس الأول حكم مصر أمر بإغلاق معظم المدارس التى أنشأها جده محمد على ، وفى مقدمتها مدرسة الألسن ، وأبعد ناظرها رفاعة الطهطاوى إلى السودان .

ولبث رفاعة فى الخرطوم نحو أربع سنوات قاسى فى خلالها الأمرين ، ولم ين لحظة عن السعى للعودة إلى مصر ، وقد أورد فى كتابه « مناهج الألباب » قصيدة أرسلها إلى حسن باشا كتخدا مصر يشكو فيها مما يقاسيه ويستعين به لمساعدته للعودة إلى الوطن قال :

شكوى

ألا فَادْعُ الذى تَرْجُو ونادِ ... يُجِبْكَ ، وإن تكنْ فى أىِّ نادِ
فَمَنْ غَرَسَ الرَّجا فى قلْبِ حُرٍّ ... أصابَ جَنَى النجا غِبَّ الحصَادِ[1]
ومن حُسْنِ الخلائقِ سَلْهُ صُنْعاً ... جَميلاً ، فهُوَ أوفى بالودادِ
بَنُو الآدابِ إخوانٌ جميعاً ... وأخدانٌ بمختلفِ البــلادِ[2]
وآدابُ الفَتَى تُعْليــهِ يوماً ... إلى الأنجادِ من بَعْدِ الوِهادِ[3]

---

(١) غب الحصاد : بعد الحصاد .

(٢) أخدان : جمع خدن ، الحبيب والصاحب .

(٣) الأنجاد : جمع نجد ، المكان المرتفع . والوهاد جمع وهدة ، الأرض المنخفضة والهوة فى الأرض .

وآدابِي تُسَامِي بي الدّرارِي | على شَمَمِي ، وتُبلِغُني مُرادِي
ومالِي لا أتيهُ بِهـا دَلالاً | وقد دلَّتْ على نَهْجِ الرّشَـادِ
إلى سُبُلِ الفَخارِ تقودُ حَزْمِي | وفي مَيْدَانِهِ عزْمُ انقِيادِي
عُصامِيٌّ طَرِيفُ المجْدِ سَعْياً | عِظامِيٌّ شرِيفٌ بالتِّلادِ (١)
سِوَى نَسَبِ العُلومِ لِيَ انْتِسابٌ | إلى خيرِ الحواضِرِ والبَوادِي
حُسَيْنِيُّ السُّـلالَةِ ، قاسِمِيٌّ | بطهطا مَنْشَرِي ، وبها مِهادِي
لسانُ العُرْبِ ينسبُ لي نِجَاراً | ويُدنيني إلى قُسِّ الأيادِي (٢)
وحَسْبِي أنَّنِي أبرزتُ كُتُباً | تُبيدُ كتائباً يومَ الطِّرادِ
فمنها مَنْبَعُ العِرْفانِ يَجْرِي | وكم طِرْسٍ تحَـبَّرَ بالمِدادِ
على عَدَدِ التَّوَاتُرِ مُعْرَبَاتِي | تـفِي بفنونِ سلمٍ أو جِهـادِ
وملطبرونُ يَشْهَدُ وهو عَدْلٌ | ومُنْتِسْكو يُقِرُّ بلا تمادِي
ومُقْتَرِفُو قَرَاحِ فُرَاتِ دَرْسِي | قد اقْتَرَحُوا سِقايَةَ كلِّ صادِي (٣)
ولاحَ لسانُ باريسٍ كشمسٍ | بقاهرةِ المعزِّ على عِمادِي
ومحيي مصرَ أحيا كان قَدْرِي | وكافأني على قَدْرِ اجتهـادِي
سأشكرُ فضْـلَهُ ما دُمْتُ حَيًّا | وماشُكْرِي لدى تلك الأيادِي (٤)

---

(١) العصامي : نسبة إلى عصام حاجب النعمان وهو من شرف بنفسه لا بآبائه ومنه المثل : «كن عصامياً لا عظامياً» أى أشرف بنفسك كعصام لا بآبائك الذين صاروا عظاماً . والطريف : المجد المكتسب . والتلاد : المجد الموروث .

(٢) النجار : الأصل والأرومة . قس الإيادى : هو قس بن ساعدة الإيادى خطيب العرب وأسقف نجران يضرب به المثل بالفصاحة والبلاغة .

(٣) القراح : الماء الخالص . الفرات : الماء العذب جداً . الصادى : الظمآن .

(٤) الأيادى : النعم .

رعى الحنَّانُ عَهْدَ زَمانِ مِصرٍ　　وأمْطَرَ رَبْعَها صَوْبَ العِهادِ[1]
رحلتُ بصفقــةِ المغبونِ عنهـا　　وفَضْلِي فى سِــواها فى المزادِ
وما السُّودان قطُّ مقامُ مِثْلِي　　ولا سَلمَاىَ فيهِ ولا سُعادِي
بهـا ريحُ السَّمومِ يُشَمُّ منهُ　　زَفيرُ لَظًى ، فلا يطْفيه وادِي
عواصِفُها صباحاً أو مساء　　دواماً فى اضطرابٍ واضطِهادِ
وحَشْوِي فَتكُها بنصيفِ صَحْبِي　　كَأَنَّ وَظيفَتِي ابْسُ الحِدادِ
وقد فارقتُ أطفالاً صغاراً　　بطهطا ، دون عودِي واعتيادِي
أفــكِّرُ فيهمُ سِرًّا وجَهْراً　　ولاَ سَمَرِى يطيبُ ولا رُقَادِي
وعادَتْ بهجَتِي بالنَّأيِ عنهُمْ　　بلوعَةِ مُهْجَةٍ ذاتِ اتقادِ
أريد وصالَهم ، والدَّهـــرُ يأبى　　مُواصَلَتِى ، ويطمعُ فى عِنادِي
وطالت مدَّةُ التَّغريبِ عنهُمْ　　ولاغُنْمٌ لدىَّ سِوَى الـكَسادِ
وما خِلْتُ العزيزَ يريدُ ذُلِّى　　ولا يُصْغِى لأخصامٍ لِدادِ[2]
لدَيْه سَعوْا بألسِــنَةٍ حِدادٍ　　فـكيفَ صغَى لألْسِنَةٍ حِدادِ
مهازِيلُ الفضائلِ خادَعُونى　　وهلْ فى حَرْبِهِمْ يكبُو جَوادى[3]
وزخرفُ قولِهِمْ إذ موَّهُوهُ　　على تَزييفِهِ نادَى المُنادِي
فهَلْ من صَيْرَفٍ المعْنى بَصيرٍ　　صحيحِ الإنتِقاءِ والانْتِقادِ ؟
قِياسُ مَدارِسى قالُوا عَقِيمٌ　　بمصرَ ، فما النَّتيجَةُ فى بِعادِي ؟

---

(١) الحنان : ذو الرحمة وهو أحد الأسماء الحسنى . صوب العهاد : المطر .
(٢) اللداد : جمع لدود ، الخصم الشديد الخصومة .
(٣) يكبو : يعثر .

ثلاثُ سِنينَ بالخرطُومِ مَرّتْ بدونِ مَدارِسٍ طبْقِ المُرادِ
وغايَةُ مَطْلَبِي عَوْدِى لأهْلِي ولو من دونِ راحِلَةٍ وَزادِ (١)
وكم بُشِّرتُ أنّ عَزيزَ مِصْرٍ تَفَوَّهَ بالفِكاكِ ، ولم يُفادِ
وحاشَا أن أقولَ مَقالَ غَيْرِى وذَلِكَ ضِدّ سِرّى واعْتِقادِى
(لقد أسْمَعْتَ لو ناديتَ حَيًّا ولكن لاحَياةَ لمن تُنادِى)

---

(١) الراحلة : المطية .

١ ــ المراجع العربية

أمين (الدكتور أحمد)

= زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٤٨

الجبرتى (عبد الرحمن)

= عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، المطبعة الأهلية ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .

الرافعى (عبد الرحمن)

= تاريخ الحركة القومية ، ج ٣ ، عصر محمد على ، القاهرة ١٩٣٠

= عصر إسماعيل ، جزءان ، القاهرة ١٩٣٢

رستم (الدكتور أسد)

= بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها (عن الوثائق المحفوظة فى قصر عابدين) ، ٤ مجلدات ، بيروت ١٩٤٠ ــ ١٩٤٣

الشيال (الدكتور جمال الدين)

= رفاعة الطهطاوى (مجموعة أعلام الإسلام) ، القاهرة ١٩٤٥

زيدان (جورجى)

= تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، القاهرة ١٩٣٧

= تراجم مشاهير الشرق فى القرن ١٩ ، جزءان ، القاهرة ١٩٠٢ ــ ١٩٠٣

سامى (أمين باشا)

= التعليم فى مصر ، مطبعة المعارف ، القاهرة ١٩١٧

= تقويم النيل وعصر محمد على ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٢٨

أبو السعود (عبد الله أفندى)

= منحة أهل العصر بمنتقى تاريخ محى مصر ، مخطوط بمكتبة بلدية إسكندرية ، رقم ٤٦٤٠ ج

= الدرس المختصر المفيد فى علم الجغرافيا الجديد ، تأليف قوزنبنير ترجمه إلى العربية أبو السعود ، القاهرة ١٢٨٦ هـ .

= تاريخ الديار المصرية فى عهد الدولة المحمدية العلوية ، تأليف برنار ، وترجمة أبو السعود ، مخطوط بمكتبة بلدية إسكندرية ، رقم ٣٣٤٤ ج

الشيال (الدكتور جمال الدين)

= تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية ، القاهرة ١٩٥١ .

= تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، القاهرة ١٩٥٢ .

= الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الإسلامى الحديث ، الجزء الثانى ، مصر والشام ، القاهرة ١٩٥٨ .

= الدكتور برن والشيخان محمد عياد الطنطاوى ومحمد عمر التونسى ، مقال فى مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، المجلد الثانى ١٩٤٤.

شيخو (الأب لويس)

= الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ، جزءان ، بيروت ١٩٠٨—١٩١٠

الطهطاوى (رفاعة رافع)

= تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز ، القاهرة ١٣٢٣ (١٩٠٥)

= التحفة المكتبية فى القواعد والأحكام والأصول النحوية بطريقة مرضية ، مطبعة المدارس ١٢٨٦ هـ .

= أنوار توفيق الجليل ، فى أخبار مصر وتوثيق إسماعيل ، بولاق ١٢٨٥ هـ .

= مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ، القاهرة ١٣٣٠ هـ .

= المرشد الأمين للبنات والبنين ، مطبعة ديوان المدارس الملكية ١٢٨٩ هـ .
= نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز ، مطبعة روضة المدارس ١٢٩١هـ.
= منظومات وطنية كثيرة .
= مواقع الأفلاك فى وقائع تلماك ، تأليف فنلون وترجمة رفاعة ، بيروت (بدون تاريخ) .

طوسون (عمر)
= البعثات العلمية فى عهد محمد على ، الإسكندرية ١٣٥٣ هـ .

عبد الكريم (الدكتور أحمد عزت)
= تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، القاهرة ١٩٣٨
= تاريخ التعليم فى مصر (عصور عباس وسعيد وإسماعيل) ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٩٤٨

عبده (الدكتور إبراهيم)
= تاريخ الوقائع المصرية ، بولاق ١٩٤٢
= أعلام الصحافة العربية ، القاهرة ١٩٤٤

غربال (محمد شفيق)
= محمد على الكبير (مجموعة أعلام الإسلام) ، القاهرة ١٩٤٤

مبارك (على باشا)
= الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ جزءاً ، بولاق ١٣٠٤ — ١٣٠٦ هـ .

مجدى (السيد صالح بك)
= ديوان السيد صالح مجدى ، بولاق ١٣١١ هـ .

= حلية الزمن بمناقب خادم الوطن (سيرة رفاعة الطهطاوى) ، نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٨

مؤنس (الدكتور حسين)

= الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٣٨

هيكل (الدكتور محمد حسين)

= تراجم مصرية وغربية ، القاهرة ١٩٢٩

مقالات فى صحف ومجلات

تيمور (أحمد باشا)

= الشيخ محمد عياد الطنطاوى ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، مجلد ٤ ، جزء ٩ . عدد أيلول ١٩٢٤ ، ص ٣٨٧ ــ ٣٩١

حسين (محمد الصادق)

= رفاعة بك ، السياسة الأسبوعية ، السنة الثانية ، العدد ٦٤ ، ٢٨ مايو ١٩٢٧ .

عبد المجيد (عبد العزيز)

= أول مدرسة مصرية فى السودان ، الثقافة ، السنة الخامسة ، العددان ٢٢٤ و ٢٢٥ .

الوقائع المصرية ، أعداد مختلفة منها .

المراجع غير العربية

1. Artin (yacoub Pacha)

   = l'Instruction Publique en Egypte, Paris 1890.

2. Carra de Vaux (Baron)

   = Les Penseurs de l'Islam. t. 5, Paris 1926.

3. Hamont

   = l'Egypte sous Med. Ali, 2ts. Paris 1843.

4. Lane (Ed. W.)

   = Manners and Customs of Modern Egyptians. London 1860.

5. Dunne (J. Heyworth)

   = Printing and Translations under Med. Ali of Egypt. (J.R.A.S. July 1940).

فهرست

الفصل الأول

عصر رفاعة الطهطاوى

الفصل الثانى

رفاعة الطهطاوى فى عصره

الفصل الثالث

جوانب رفاعة الطهطاوى

صفحة

الفصل الرابع

منتخبات من آثار رفاعة الطهطاوى

رفاعة الناثر

رفاعة الشاعر

رقم الإيداع	١٩٨٠ / ٣٤٣٢
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٧٣٣٠-٩٠-١

١ / ٨٠ / ١٢٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)